ربيعة جلطي

الذروة

رواية

الطبعة الجزائرية

دار الحكمة

الذروة

رواية

ربيعة جلطي

الذروة

روايـة

توشيح :

لو أن شبها تراءى، بين هؤلاء وآخرين، فذلك لأنه، يخلق من الشبه أربعين.

1

أغلقت الباب دوني، هكذا...

أنت أيضا يحدث لك أن تغلق الباب دونك.

أعرف !! ..

يحدث أن تلملم زغب ذاتك المنفوش، مثل عصفور وقع من عش أمه، أعزل إلا من ألوان عيون القطط، ألوان جميلة للموت.

كيف السبيل إلى العودة إلى عش أمه وغلق الباب دونه؟

أعرفك. أنت أيضا يحدث لك أن تغلق الباب دونك. تهرب بذاتك إلى ذاتك، تفكها من مخالب الدنيا كما تفعل بمنديل حريرانسدل في غفلة منك فعلق بكومة شوك. تفك أطرافه بحذر ولطف.. هكذا.. بمنتهى اللطف. تسل أطراف ذاتك المتعبة من ملكوت الضجيج. تجذبها إليك بكل ما أوتيت من صبر. تسحبها من ممرات الهواء والثقوب والشقوق ثم تغلق.

أليس كذلك ؟

بلى !! تغلق الباب دونك. تبدأ في لعق جروح ذاتك بيسر. تقشرها من بقايا قروح قديمة ظلت عالقة بطبقات

الروح منك. تركن إلى زاوية بكماء تصغي إلى أنينها، ثم تمسح دموعها بعد أن تجهش على صدرك مديدا. وبرفق تغوص بها في حوض ماء الزهر، ومثل أميرة تدعك أطرافها بالعطور وتسمعها أرق الأغاني وأعذب الكلام.

تظل تهدهد ذاتك إلى أن تبتسم مثل شجرة عطشى يفاجئها المطر فيتأوه تحت جذعها التراب. تلفها في فوطة دافئة، تحملها بين ذراعيك، تتأكد من انفراج اساريرها ومن هدأتها قبل أن تفتح بابك من جديد لعجاج المدينة الأهوج..

أن تغلق الباب دونك للحظات ،فأنت تريد الاقتراب من حقيقتك في سريتها التي لن تفش بها لأحد آخرغيرك مهما دنا. أن تشاهد ضوءها الخافت عن قرب. أن تتعرف عليها عارية إلا منك بعيوبها ومفاتنها.

- افتحي الباب يا أندلس افتحي الباب. !!

لم أكن أرد على أحد.. كنت في حوار جاد مع ذاتي، أجالسها وأصفي حساباتي معها كي لا أنتحر ،وتصفي حساباتها معي كي لا تجن، فلا نتخاصم ولا نتقاطع إلا نادرا .

تعلمت هذا منذ سنين المراهقة، حين كنت أحاول أن أفهم سر وشوشات أفراد العائلة، وهمساتهم، ولفتاتهم ،وضحكاتهم الغريبة من عادة عمتي "زهية ".

لماذا تفتك زهية اهتمام الكثيرين ؟ لماذا ينظر إليها جميع من حولها بمزيج من ماء التقديس ودقيق الغيرة ؟ ألجمالها

وشبابها أم لأناقتها أم لأنها المترجمة الشخصية للزعيم والموظفة السامية في قصره لسنوات!؟.

جميع أفراد العائلة الموزعة في جغرافيا البلد أو خارجها يتناقلون بسرية تامة ونكهة مرح، أخبارها وسر احتفاظها بمنصبها ولياقتها وبابتسامتها، رغم تعاقب الحكومات وروائح أفواه الوزراء، واختلاف أحجام مؤخراتهم، وطبائعهم، التي يجرجرونها من دشورهم أو قراهم أو مدنهم الداخلية النائية.

زهية متميزة. تعترف لها العائلة بذكائها وشخصيتها القوية. ميزتها الأكبر نهمها للقراءة وعشق القواميس. قواميس عتيقة مصفرة ترجع طباعتها إلى أواسط القرن الماضي، ذات رسوم توضيحية وتفسيرية دقيقة بكل الأحجام والألوان، وقواميس أخرى حديثة بادية الفخامة، قواميس ضخمة بأوراق رقيقة شفافة وأخرى صغيرة بحجم الكف. القواميس الأقزام، هكذا تسميها، زهية.

كانت زهية تتعامل مع القواميس بمنتهى الرقة. بعد أن تنتهي من استعمالها، تضعها بعناية على الرف تم تنظر إليها بحنان فياض.

لم تكن زهية تنضم إلى مجالس نساء العائلة عند الظهيرة أوفي المساء لتثرثر كالأخريات، ولم تكن ترى خارج عملها إلا وفي يدها كتاب تقرأه بمنتهى اللهفة، وحين تنضم إلى مجلس المائدة سيكون في ركن ما قريب، كتاب مفتوح منكب على وجهه ينتظرها، تضع أحيانا كثيرة كعلامة على الصفحة المنتظرة، مشبكا من مشابك شعرها الذهبية

أو الفضية. تسله من تسريحتها ليعضض على الصفحة المبتغاة ينتظرها ريثما تعود إليه.

وأنا أراقب من يراقبها، أزداد إعجابا بشخصية عمتي زهية وأستحسن كل ما تقوم به. كنت في بدء مهب عاصفة المراهقة.

في غيابها أداعب قواميسها وأفتح كتبها العديدة. أورقها بين أصابعي، وأسمع موسيقى خشخشتها وكأنها تفضي لي بأسرار خارقة ليس يعلمها أحد سوى عمتي زهية. كم كنت على عجلة من أمري لأفك ألغازها ،وأخترق حجبها ،وأرفع أستارها، فبدأت أحاول قراءتها جاهدة كي أدرك محتواها..

في غياب زهية ألبس أحذيتها الجميلة الملونة ذات الكعب العالي، وأقلد مشيتها وحركاتها القلقة، فتنهرني جدتي لالة أندلس و تضحك عماتي ويبتسم عمي التاقي والباقون. عمتي زهية لطيفة الملامح، ضاحكتها .وجهها مريح وبشوش. عندما تنظر إلى وجهها تبدو لك الدنيا سائغة مثل حبة كرز،و مريحة مثل أريكة من سحاب، أو قل كأن العالم عصفورطليق جناحاه من قوس قزح، يدق على أبواب الصدور كل صباح، فتنشرح، وتتذكر أن الحياة فرصة وفسحة جميلة.

لست أدري كيف فرضت زهية حقها في عادة الاختلاء في الحمام ساعة كاملة قبل ذهابها إلى العمل. ساعة كاملة، لا أحد يتجرأ أثناءها على الاقتراب من الحمام أو فتح بابه.

لذلك اضطرت العائلة إلى استحداث حمام ثان قرب الباب الخارجي.

تدخل زهية الحمام، تغلق الباب دونها. رويدا رويدا يتعالى صوتها ليس بالغناء كعادة الناس تحت الماء، ولكن بصراخ الغضب والشجار. تسب وتلعن بأعلى صوتها وتسمي أشخاصا بأسمائهم. علمت في ما بعد أنهم مسئولين مهمين في السلطة وتسيير أمور البلد، هؤلاء الذين ستلقاهم خلال يوم العمل الجديد هذا، أو تكون على موعد عمل معهم في الساعات المقبلة .

حين تدخل زهية قاعة الحمام، تحمل إضافة إلى حقيبة يدها بعض الملفات و الصور، وأدوات أخرى تخفيها عن العيون. تغلق زهية الباب دونها بعد أن تدير المفتاح مرتين، بينما لا يظهر لنا أنا وفتحي ابن عمي من اختلائها غير ما يبديه ثقب المفتاح.

في غفلة عن الكبار، كنت برفقة فتحي ابن عمي، نسترق النظر إليها من ثقب الباب. الحقيقة أن ثقب الباب لم يكن سخيا معنا ولكن ليس مهما، خيالنا الفتي الخصب، يكمل ما ينقص المشهد بما يرضي الفضول ..

تلصق زهية صورة الواحد من شخصياتها على مرآة الحمام الكبيرة، تدخل معه في حوار عن أمر ما، عن مسألة تبدو جادة في البداية، ثم لا تلبث أن تكيل له السباب بأعلى صوتها، وتبصق عليه، وتهينه، وتأمره، وتنهاه، وتوبخه وتشزره، وتنهره، وتحذره من نطق كلمة :

– أسكت يا كلب، يبدو أنك صدقت أنك وزير.. كيف لك أن تكونه وأنت على ما أنت عليه من الغباء والشطط. أنت لست أكثر من ذبابة زرقاء، الأحسن لك أن تبيع بعر الماعز إذا وجدت من يشتريه، ذاك ما يليق بك تماما.. ياله من بلد ويا له من زمن أغبر بئيس أصبح فيه أمثالك مسؤولين على مصالح الناس ! ..

أغلق فمك لم أكمل كلامي ولم أسمح لك بالكلام . !

أما الزعيم صاحب الغلالة، فتناديه باسمه الخاص، وتسمعه ما لا يسمع بلغات مختلفة، العربية منها ولغات أخرى، ربما كانت الفرنسية أوالإسبانية أو الروسية أو الإنجليزية أو الألمانية.

سمعتها ذات صباح تصرخ في وجهه :

ألم تعلمك أمك الفطنة أيها الدب..؟ أكان علي أن أنبهك إلى غلق فتحة سروالك؟ هذه ليست مهمتي. ..مهمتي غلق فتحات مخك أيها الأجرب..... ثم تنشب أظافرها في الصورة وتمزقها إربا إربا.

حمامنا مأهول بالناس .ناس ليسوا كالناس .نتعرف كل يوم عليهم أكثر أنا وفتحي ابن عمي من خلف ثقب الباب، ونكاد نلمس وجوههم .نتأكد يوما بعد يوم أنهم أشرار وخطيرون وظلمة وسيئون بدون قلب ولا إحساس. هؤلاء أنفسهم الذين نشاهدهم بكل أبهة على الشاشة ، محاطين بالصحفيين والمصورين، أو وهم يمرون في الشوارع عائمة سياراتهم السوداء في صخب صفارات الإنذار والأضواء

،وحولهم الحرس على دراجات نارية ضخمة،أوداخل سيارات خاصة قلقة من أمامهم ومن خلفهم .

كم يحلو لنا أنا وفتحي ابن عمي عادة متابعة نشرة الأخبار المسائية مع الكبار، لم يكن يعرف أهلنا لماذا كنا نتهامس ونعلق ونشير بسبابتينا إلى الشخوص على الشاشة ،وكم يحدث أن نستلقي من الضحك ونحن نتابع معهم تحركات ونشاطات الزعيم صاحب الغلالة، والسادة الوزراء والمسؤولين الكبار والحجاب ونسترجع معرفتنا السرية بهم وبأخبارهم الغريبة كأنما نحن نتفرج على رسوم متحركة أو فيلم هزلي. تنهرنا جدتي وتجبرنا على ترك الصالة، ليتسنى لهم متابعة نشرة الأخبار الرئيسية في هدوء وتركيز ..

نخرج على مضض ثم نعود إلى قفل الباب كي لا تفوتنا تفاصيل النشرة المسائية ..

ككل صباح، تكور زهية المناشف على حافة المغسلة، تجعلها على شكل رؤوس ووجوه أشخاص تشبه أحجام رؤوس الشخصيات المهمة، وألوان شعرهم. فمنها البيضاء المشتعلة شيبا، ومنها الصفراء بالصلع، ومنها السوداء والحمراء والرمادية. فتسمي أصحابها، تصففهم الواحد جنب الآخر، وتوجه ضرباتها إلى عيونهم وأفواههم، فتسمل لهذا الوزير عينا، وتكسر لذاك المدير سنا ،وتحطم لتلك المستشارة فكا، وتشتم رئيس الحكومة شخصيا، ثم تهشم رأس الصحفي الذي يجري تقريرا يسميه حساسا وبالغ الأهمية، يسميه تقرير العصر حول حرية الرأي المسترجعة في عهد الحكم الراشد.

تنهي زهية رأس الصحفي/ المنشفة تحت رجليها، تسحقها بلا رحمة :

- أانت أعمى أم أحمق؟؟ عن أية حرية تتحدث في هذا الحبس الكبير أيها الحمار؟؟؟

تضع زهية المناشف (الرؤوس) المهشمة في سلة الثياب الموسخة ،تنفض يديها منها بل منهم، ثم تغتسل في هدوء. وبعد لحظات صمت تفتح الباب.

تخرج زهية من الحمام صامتة، هادئة ،مبتسمة كالعادة، بعد ساعة من المعاناة والمشاجرة. طبعا لم تعلم بوجودي وفتحي ابن عمي خلف الباب .. تلبس بذلتها الجميلة وحذاءها الملون بكعب عال، تمشط شعرها، وتضع زينتها وماكياجها المتقن، ثم عطرها المنتقى الفاخر فوق ابتسامتها الهادئة . ابتسامة وهدوء أذهلا الجميع حولها ،وزاداها جاذبية غامضة وساحرة.

تقول عماتي :

- زهية "عندها الزهر يشقف الحجر ". !!

حظها وافر في كثرة الخطاب، وجميع خطاب ودها من الرجال المهمين في المجتمع.. عماتي منزعجات وقلقات جدا لخشيتهن من كثرة رفض زهية لخطابها، متخوفات من أن تضيع فرصا مهمة في حياتها ثم تصبح عانسا ..

هل زهية عندها الزهر يشقف الحجر..؟

على أي حال لم يخطئوا في بيتنا حين أطلقوا على ذلك الصيف من تلك السنة "صيف زهية ".

كان صيفا يشبهها .يأخذ عطر فاكهته من فاكهتها.

كيف يشبه فصل الصيف امرأة ؟ أو رجلا ؟

كيف يشبههما معا؟

.. نعم .. "صيف زهية" لا ينسى .. مازالت روائحه تختبئ في ثنايا ذاكرتي. صيف معطر. لأول مرة أعلم أن للشمس رائحة. رائحة تشبه عطر الخزامى، أو.. قل رائحة القهوة حين تخرج لتوها من الطاحونة. تتدفق رائحته إلى داخل زوايا البيت من النوافذ والشرفات والأبواب.

بدا البيت لي رحبا ومبهجا آنئذ. امتلأ غناء ورقصا. لم أكن من قبل قد رأيت عماتي بمثل هذه الأناقة، يرقصن بكل هذا الإتقان والشموخ. اكتشفت أنهن مختلفات في ميولا تهن الطربية والموسيقية.

نهضت عمتي الكبرى كلثوم تحت التصفيقات وشلالات الزغاريد تتبع حركتها العيون اللماعة الغمازة. اعتدلت في وقفتها ثم بدأت تميل على جنباتها في بطء وشموخ وكأنها نخلة تراقصها الريح، وقد أسكرها الإيقاع الأندلسي وصوت المطرب الشيخ غفور:

لمن نشكي بليعتي عيدولي يااهل الهوى
آش عيبي وذلتي خلوتي خاطري انكوى
شعلت نيران مهجتي ضيعت القلب ما قوى

أضحت عمتي كلثوم وكأنها في عالم ثان مواز. تلوح بيديها في إيقاع متزن، وترفع قدميها عن الأرض قليلا قليلا وكأنها تجرب أن تطير. عيناها مفتوحتان إلا أنها تبدو

وكأنها لا ترى أمامها أحدا. كانت في عالمها الخاص، عالم مجهول..

عمتي مريم ،من جهتها لا تلهبها سوى الموسيقى الغربية، أو إيقاع الراي السريع، فلا يتحرك منها سوى نصفها الأسفل حتى لتكاد تحلف وتقسم أن مؤخرتها تترجرج دون إذن أو تحكم منها ولا حول لها ولا قوة عليها وكأنها عجلة مجنونةانفصلت فجأة عن شاحنة كانت تجري بسرعة فائقة :

" طريق الليسي و يا دلالي

طريق الليسي عقبة وكي عياتني.. يانا

يا رااااااي يا رييييييي ...."

صوت الموسيقى يطغى على كل هرج، يطغى على كل الموجودات ويصل إلى أبعد نقطة. المدعوون الكثر يبدون مرحين. يبتسمون، و نادرا ما يتكلمون، وإذا ما فعلوا يميل بعضهم على آذان بعض، يرفعون أصواتهم بشدة. أو ينظرون مبتسمين إلى شفاه وعيون بعضهم، يحدقون بها كي يفهموا مغزى الكلام. يبتسمون. نعم يبتسمون ..

الابتسام نادر في هذه المدينة .ملامح الناس تبدو حادة وقاسية، يقترب الحاجب الأيسر من الحاجب الأيمن هكذا.. فتبدو النظرة قاسية في عمق العين هكذا.. وتزم الشفاه. ربما من خوف أو قلق. مع السنين يرتسم قناع من الشراسة عليها إلى الأبد.

ضيوفنا يبتسمون، يبدون في كامل التناغم والانسجام.

أهو فرح عرس عمتي زهية الذي أثر فيهم، أم هي القوة الايجابية المنبعثة من شخصيتها مثل موجات غامضة ؟أم هو المفعول السحري للموسيقى ؟.

على كل.. إنه صيف زهية !!

أطباق الحلوى والفواكه وصواني المشروبات اللذيذة الملونة تدورعلى نساء ورجال في كامل أناقتهم. حضرت شخصيات سياسية ودبلوماسية مهمة، سبق لي أن شاهدت صورهم على شاشة التلفزيون. همس فتحي ابن عمي في أذني وهو يومئ لي مشيرا إلى أحدهم :

- أندلس ..أندلس أنظري ذاك القادم ..إنه هو. هو !!!

- من ؟ تقصد من ؟ قلت بلهفة وأنا أستدير بسرعة.

- ذاك الذي تسميه زهية كرش الحرام. أتذكرين يوم داست على رأسه حتى تمزقت المنشفة الزرقاء ؟

- أذكوووور.. إذن هو ذاك كرش الحرام ..“ فرشخت“ زهية رأسه ذلك الصباح ،وحذرته من الاختلاسات عن طريق تضخيم فواتير ترقيع المؤسسات المفلسة ؟؟

- وذاك الذي خلفه هو طوطو الكذاب . !!!

- أنظر .. أنظر فتحي ! .. يا إلهي كرشه ضخم ألا يعيقه في النوم؟ نتوارى خلف إحدى ساريات الدار ونضحك ملء رءتينا الفتيتين.

كان من بينهم أبو حدبة المرتشي، والدلاقة الشياتة، والثعلب الأعور،وشاشي المبيوع، وسعد الانبطاح.. وغيرهم

..جميعهم تعرفنا عليهم وتفرسنا في وجوههم عن قرب أنا وابن عمي فتحي.

أنا وفتحي وحدنا نعرف أسرارهم، ونشعر بنشوة التميز على الجميع بذلك. وجدنا في التعرف عليهم ورؤيتهم عن قرب خارج المناشف، وخارج شاشة التلفزيون تسلية ومرحا. لم نتوقف عن التنافس في ما بيننا بصوت خافت ونتسلى ..من يسبق الثاني في سرد ما يعرفه عن كل واحد منهم، واستعادة ما اكتشفناه فيهم من خلال قفل باب الحمام.

- غمرت بيتنا باقات الزهور من كل الأنواع، عليها بطاقات موقعة باهتمام واعتناء كبيرين، اكتسى البيت جوا بهيجا ،يتحرك فيه كل شيء : الأجسام ،والأواني، والطعام ،والشراب، والعطور.

زهية تبدو مثل ملكة في لباسها الأبيض. كان الفرح يندفع أمواجا أمواجا من عينيها ،وهي تنظر بملء ضوئهما إلى عريسها. لاترى غيره .تضع يدها في يده. ينحني من حين إلى حين عليها. يفضي إليها بشيء ما فتضحك، ويتسلق الضوء وجهها.. كأنما يلفهما منديل من الحرير الهندي أو حزمة من نور، أو غيمة زرقاء تمطر عليهما وحدهما من غير الحاضرين زخات من عطر نادر.

لم يعد يخفى على أحد تدافع موجات العشق الجارف لهما .

صحيح أن عماتي يرددن دائما :

- زهية " عندها الزهر يشقف الحجر"

لكن ..كل هذا الزهر وتختار عريسها صيادا بسيطا يسكن على شاطئ بوزفيل .؟؟

تناقلت نساء العائلة أطرا ف حكايات غريبة عن العلاقة السرية التي جمعت زهية بحبيبها لسنوات عديدة، دون علم أحد . قيل إن أصوله من عائلة يهودية عريقة تدعى "آل كرز" ،عائلة ظلت لزمن طويل ممتد على ألفة مع البحر المتوسط .

هاجرت عائلة "آل كرز" نحو شواطئ المغرب الأوسط بعد سقوط دولة بني الأحمر، ولزمن طويل تعاطى أفرادها تجارة الحرير والآلات الموسيقية، ثم شيدوا في حاضرة مستغانم، أو مسك-الغنائم، أومستغالم- كل ينطق اسمها كما يشاء - بيوتا جميلة مستوحاة من هندسة قصور بني الأحمر. استقروا على الشاطئ المفتوح المنبسط مثل كفين حنونين. مستغالم الحظية التي عشقها الرومان والفينيقيون، ثم جاء الأندلسيون فتفننوا في التماس ودها، فمنحوها بسخاء واستماتة العاشق حياتهم، وحولوها إلى حاضرة تعيش في أكمام من الترف والنعيم، وظلوا يدفعون للأتراك الضرائب المرتفعة وكأنهم يفدون مدينتهم بالنفيس، وعلى الرغم من أن الأميرعبد القادر صد جيوش الاحتلال الفرنسي عنها لفترة إلا أنهم دخلوها سنة 1833.

اضطرت عائلة آل كرز بعد الاستقلال إلى معاودة الهجرة نحو إسبانيا. رآهم وهو طفل صغير يتباكون وهم يركبون البحر إلى أليكانت.

مات أبوه حسرة على هواء وشمس وأيام مستغالم، وظلت أمه تقلب الصور وتجوب غرف الخيال الموجع بعين دامعة. تعيد شريط حياتها. هي التي ولدت في مستغالم حيث ولد أجدادها ،و أمها ،وأبوها .وحيث تزوجت وحيث أنجبت .لم تبرحها أبدا حتى ذلك اليوم المشئوم.

ظلت بعد وفاة زوجها تتلقفها الذكريات مابين هدهدة لذيذة، وبين هد كاسر موجع. ظلت كل سبت تدلف إلى مقبرة مدينة مرسية، تجلس إلى قبر زوجها، تردد له بصوت منفخض أشعار سيدي لخضر بن خلوف، وأغاني المالوف إلى أن اضطجعت قربه إلى الأبد بسرعة البرق.

ترعرع ابن" آل كرز"على الحنين الجارف لمستغالم .

المدن مثلنا أيضا، تقول جدتي لالة أندلس. مثل قاطنيها. والمدينة هذه، منذ أن وجدت وهي قابعة أمام البحر تشكو إليه مواجعها، وتحاول جاهدة، دون جدوى، أن تسل قدميها من فردتي حذائها الذي يغمره الماء .

ظلت مستغالم تنادي آل كراز، بأحيائها النائمة تحت عباءة البحر الأبيض المتوسط، بحدائقها وأبوابها الأربعة. بأسوارها الناطقة وببذخها وجبروت جمالها. ظلت ساكنة فيه يشير إليه بحرها، وبرها، وسماؤها. بعدئذ لم يصبر، تعاظم الشوق فيه واستكبر إلى أن قرر الرجوع إليها. جاب شوارعها وحاراتها وأزقتها، ثم تنقل بين المدن الساحلية ،فحقق مكانته في أوساط الصيادين والبحارة.

لم يترك البحر أبدا.

إنه يعشق البحر لأنه قدره في جزره ومده، في ذهابه وإيابه، في شطآنه وأغواره. ذل أهله وأبكاهم، وأسرهم وأضحكهم، أسعدهم وأشقاهم، سقاهم العسل وجرعهم العلقم.

أليس هو الشاهد على تعاقب الحضارات في قيام مجدها، و أفول نجمها ؟

شاهد على الحروب الغبية .؟

شاهد على مآسي الناس وأحزانهم واعتصار قلوبهم. تفرقهم العصبية الحمقاء ويشتتهم الغباء واللاتسامح. ؟

شاهد على مرورهم المر وهم يعبرونه ذهابا وإيابا فوق سفنهم المطأطئة الحزينة.

شاهد على إصرارهم أن يتشبهوا به في هدوئه وعنفه، في لينه وقسوته، وفي وضوحه الملغوم وغموضه، في سماحته وغدره، وسكونه وهيجانه وثورته ؟.

هو البحر إذن شاهد على تسلق الشمس سلالم السماء ،ثم نزولها برفق إليه ترتمي بشوق في مياهه، تغتسل من عناء نهار ومما رأته من أوجاع الناس.

اختارت زهية ابن "آل كرز" الذي لا يبرح بحرا إلا إلى بحر. يتلمس شقوقا به تركتها سفن أهله. مرات ذهابا، ومرات إيابا باكين مكسوري الخاطر.. اختارت زهية ابن آل كرز بعد أن شغفت بحكاياته عن أمه، ومسقط رأسها. عن أيام عمرها الجميلة الوديعة في مستغالم ،وعن الليالي المؤنسة، وعن سهرات ملأتها النساء مسلمات عربيات

وأمازيغيات ويهوديات يجمع بينهن الحب العظيم المكلل بالفرح. يغنين ويطرزن الفساتين الجميلة، ويطبخن معا الكسكسي و"الدفينة" وأطباقا عربية وأمازيغية ويهودية، ويحتفلن بالأعياد الدينية جميعها معا. يسهرن، ويحضرن أعراس ومآتم بعضهن معا، ويتعلمن فنون الأنوثة، والتجمل والأناقة، والتربية، والمكر، والمنكر، والأخلاق العالية.

كانت أم آل كرز تقلب المواجع اللذيذة ، تذكرلابنها أسماء جاراتها المسلمات واليهوديات، وأسماء آبائهن، وأمهاتهن، وأزواجهن، وأطفالهن، وجميع أفراد عائلاتهن الكبيرة.

كانت تعرفهم جميعا فردا فردا. تتذكر حكايات العشق والسمر والسهر . كبروا أمام ناظريها حول مائدة واحدة.. ألم يأتوا معا ذات نكسة من خلف البحر الأبيض المتوسط ؟ ألم يحطوا معا حمل قلوبهم الثقيل على شواطئه؟.

هم مجبولون على العيش معا.

تعمق في ذاكرتهم الجماعية أن البحر الأبيض أبوهم وأن الأرض السخية أمهم.

يسكنون بيوتا كبيرة بسيطة على الرغم من بذخ الزخرفة عليها. مليئة بالأشجار. يتخللها الماء من كل مكان، يجري رقراقا في السواقي. غرف مقابل غرف، تقابلها أشجار النخيل والليمون و الكرز.

أطفال يأكلون على مائدة الجارة دون تمييز. كل أم هي أم ثانية يلجأ إليها الصغار دون تفرقة، يشبعون ويرتوون بين

يديها ثم يصلون لله، لإله واحد كل بطريقته .كان الله هناك قريبا منهم. فما الذي جرى يا ترى ؟

من سود القلوب البيضاء الناصعة ؟؟.

حكى ابن آل كرز لعروسه زهية عن أمه التي لم تنس ذلك الشتاء الكئيب، حين استيقظت المدينة على حادثة غريبة وخطيرة : شبان مسلمون في الحمام الشعبي يباشرون شابا يهوديا بكلام غريب :

- لتذهب إلى بلدك أيها اليهودي!!

- بلدي ؟؟؟؟ أي بلد ؟؟؟ هذا هو بلدي. أنا في بلدي. !! أجاب واثقا.

- لا.. بل بلدك فلسطين.. اذهب إلى فلسطين بلد اليهود. !!

- أي فلسطين ؟ أنا لا أعرف بلدا لي غير هذا.. أنا لا أعرف فلسطين ولا مكانا آخر في العالم، وفلسطين لا تعني لي شيئا. !!

- لا بل عليك أن تذهب إلى بلدك بلد اليهود فلسطين. أنت لست منا !!

- هل جننتم ؟ لم أسمع أحدا من عائلتي من قبل يتكلم عن فلسطين. أنا لا تهمني فلسطين. بل هذا هو بلدي وبلد أجدادي .. مثلكم تماما ولم أعرف غيره ولن أبرحه.. هذا هراء. !!

واشتدت المشاجرة ،حمل الشبان الفتى اليهودي وألقوا به في البرمة الساخنة للحمام، فمات على الفور.

عقب الحادثة المروعة، أصاب أهل المدينة رعب وذهول.

ما الذي يجري في المدينة الهادئة المتسامحة ؟

ما الذي يحل بالقلوب تحت سماء الله ؟؟.

مال السم الزعاف بدأ يسري في حبل السرة الذي كان يسقيهم حليب المودة وعسل الحب ؟

هل سمم الفرنسيون الوافدون سماءهم بقانون و"مشروع كريميو " بتخصيص اليهود بالجنسية الفرنسية وبالتالي إحداث تمييز وشرخ بل جرح لا يلتئم في قلوب الناس؟؟ .. أفرق تسد ؟؟

كان يحلو لآل كرز أن يقص على زهية حرقة دمع أمه، وهي تحكي ما جرى. يصور لها كيف كانت تأخذه في حضنها تهدهده، تدس رأسها في رائحة عنقه ثم وكأنها في عالم آخر تغني، أو ترتل دقات قلبها ما حفظه عن ظهر قلب :

ولقد رأيت في ما يرى النائم يا بني ..
مخلوقات من آكلي البشر.. يجرجرون
أمعاءهم خلفهم .. غليظة .. لزجة.. مكتنزة
ممتلئة .. مقززة.. تنزلق أمامهم و وراءهم
وعلى جنوبهم
من أسنانهم المدببة يتقاطر سائل أحمر،
يزرعون الذعر حيثما حلوا.. وحيثما حلوا تندلع
الحروب وتندلع رائحة الموت..
يهرب الناس منهم، رجالا ونساء وأطفالا،
وتختبئ العصافير والفراشات والمصابيح،

وتختبئ السفن الراسيات، وتختبئ الأغاني،
وتختبئ النار في احتكاك الحجر
ولقد رأيت في ما يرى النائم
يا بني
رأيت نساء مرتجفات،
غاضبات، جميلات،
حزينات، باكيات، ضاحكات..
يتوارين خلف شقوق الوقت،
عاريات على ضفة الرقاد
ينتظرن
ينتظرن انتظار «بينيلوب»
في قصرها المحاصر المسحور
يغزلن ثم يفككن غزلهن.. يغزلن، ثم يقطعنه
إربا.. إربا
ينتظرن رجالا لطيفين .. رقيقين.. مهذبين
مبتسمين .. ودودين..
ليس يأتيهم العنف
وليسوا يأتونه.
ينتظرن فرسانا على أفراس بيضاء.. باسطي
الود والشذى واللطف الجميل..
نساء عبر الدهور، وعبر الأغاني، وعبر القصور،
والقلاع، والمجاري، وعبر اللاشيء..
نساء ينتظرن على باب الذبول..
مطلع التفاح.

ولقد رأيت في ما يرى النائم
رأيت يوما يشبه القيامة ..
ضباب.. ضباب
أناس مسرعون في كل صوب،
يحاولون ستر عوراتهم ،
هلعين، فاغري أفواههم.

يوم يشبهه الرماد
لا شمس ولا ظل ولا ضوء ولا بحر.
ولا جبل ولا ساقية ولا نجم ولا حجر.
ولا طير ولا حدود ولا نهر ولا خيل.
ولا سيف ولا ليل ولا بساط ريح.
أناس رما ديون متشابهون،
يد للأمام وأخرى
للوراء.
يهرعون في اللاإتجاه
في اللاصوب..

سألت ملاكا لم يكن يبدو سعيدا بما يحدث :
ـ ما خطبهم يا سيدي؟ !
فأشار بجناحه الأبيض الناصع إلى لوحة مكتوبة
لا نهاية لضخامتها.. كأنني استطعت أن
أميز بعض حروفها العملاقة المنغرسة في اللا مسافة :
«الحرب»
إنها الحرب يا صغيري.

استطالت شوكة الحقد، نغصت على السيدة آل كرز طفولتها البريئة. أحدثت شرخا في قناعتها الراسخة بالانتماء إلى وطن ولدت فيه : مستغالم .

لم يشد أهلها الرحال إلى فلسطين لأنهم لم يفكروا أبدا في بلد آخر غير مستغالم بلدهم .هكذا كانوا يسمونه.

هل زرعت الحادثة شكا؟ هل زعزعت هدأة النفوس؟ لماذا أصبح والدها عندما يتكلم عن "بلده" مستغالم يخفض رأسه ليخبئ دمعه؟

انغرزت شوكة الحقد إذن مرة أخرى، وجرحت طفولة عريس زهية، كان يرى أبويه يقطعان البحر الأبيض المتوسط بعد الاستقلال. يبكيان العمر الضائع، و يحملان زادا من موسيقى الحنين من مستغالم مسقط رأسهما، إلى مسقط رأس آخر ملوك بني الأحمر.

تدمع عينا زهية كلما استفاض حبيبها في ذكر التفاصيل.

هل عاد ابن آل كرز عريس عمتي زهية ليعيد غرس شجرة أجداده من جديد ؟ أم أنه قطع سرة البحر وبدأ حياة جديدة؟ ربما لهذا قال لعمي التاقي ولمن حضروا حين جاء يخطب عمتي زهية :

- أنا أدين بخالق البحر.

هل أدرك أن أرواحهم تركت إسبانيا منذ مدة، ورجعت إلى موطنها فشعر بالوحشة والوحدة بعد أن ظل هناك

وحيدا، بعد أن عادوا أدراجهم ليستوطنوا أماكنهم العزيزة فتبعهم حيث هم في أماكنهم وبيوتهم وأرضهم ؟

لماذا جبل على الالتصاق بالبحر المتوسط لا يبتعد عنه، صيادا ومتأملا؟ ألأنه يستأنس به، أم يتهيأ لانكسار ورحيل مرتقب أولهجرة أخرى ؟

كانا جميلين يتهاديان في ثوب العرس. زهية تأخذ يد آل كراز، يبتسمان بإشراق لا مثيل له. نسيا الحرب ودق طبوله، نسيا البحر وأمزجته المتقلبة. واستسلما لسلطان جبار.. الحب سلطان.

علقت عمتي كلثوم على اختيار زهية لصياد زوجا لها، بدل الخطاب العديدين الذين طلبوا يدها فرفضتهم على الرغم من كونهم من ذوي المال والجاه والمناصب المهمة. قالت متأففة :

- الله يسامحها زهية أختي... صامت شحال من عام وفطرت على بصلة !

قبل أن ينطلق العروسان إلى عشهما على شاطئ المتوسط، ودعت زهية الجميع مبتسمة وقد زادها الفرح ألقا . وقع بصرها علي بينما كنت أستند إلى زاوية حائط من الدار .أنظر إلى ما يحدث. فإذا بها تشير إلي بيدها ،بقفازها ناصع البياض ..تناديني :

أندلس ..أندلس ..تعالي يا صغيرتي.

قبلتني بحرارة، ثم ضمتني إلى صدرها بحنان أمومة جارف لم أتعود عليه :

- تهلاي لي في روحك يا عزيزتي. ادرسي مليح. كل الكتب اللي خليتها اهنا فالدار انتاعك. خليتها ليك أنت.

فرحت.. من اليوم أنا مالكة كتبها وقواميسها. لكن قلبي انقبض فجأة. سوف لن تعود زهية إلى الحمام كي تنظف ذاتها من أدرانهم. سوف لن تصرخ في وجوههم المتخيلة وتؤنب الجبابرة الظالمين وتوبخهموتسخر منهم وتعاقبهم في غياب أي رادع لهم . سوف تظل المناشف ميتة جامدة دون روح .. سوف يصبح قفل باب الحمام قفارا مهجورا.

كان صدري يضيق بي، يتزايد حجمه ، كانت الرصاصتان الملتهبتان تفتحان بشدة ممرهما في أعلى نهدي، تواريت قليلا في الحمام وبكيت بنشيج حارق، وحين استرجعت هدوئي عدت إلى زاوية جدار الدار أرقب ما يجري.

سقط الليل ،شبكت يد «آل كرز» يد زهية، وخرجا في موكب بديع يفيض بالدفء. توجها إلى سيارة العروسين في زفة وزغاريد.

كنت أراهما مثل طائرين أبيضين، مثل بجعتين تضع الواحدة عنقها على عنق الأخرى بحثا عن السلام والطمأنينة، حولهما عواصف مضمرة.. كنت أشعر أن السلام والطمأنينة يملآن دواخلهما، يسريان ويملآن المكان، ويغمران الناس من حولهما.

ملأت الزغاريد الجو ، أذهلني منظرهما وأنا ألمح سربا من النجوم المتلألئة تنهمر من عيونهما، لا تلبث أن تتصاعد في طريقها لتستقر في السماء. لم تكن السماء تقطر إلا بهاء.

إنه صيف عمتي زهية.

2

حمالة النهد
جيد وحبل من مسد

أنا أيضا مثلك. أواجه المرآة عندما تتسرب غمامة القلق المنذرة في نسيج اطمئناني.

مثلك، أدخل سراديب الصمت والعزلة كي أراني .. أعرف.

ليست غريبة هذه الحالة عليك .

جلست على طرف الأريكة بينما كنت أحاول أن أتفادى أن تعلق بثوبي ذرات الغبار الرابضة فوق الأشياء الموجودة حولي. أخرجت مرآتي الصغيرة المغلفة بقطيفة رقيقة حمراء، فباغتني القلق المهيمن على ملامحي.. تحسست حمالة صدري المائلة المنزلقة..

مشكلتي عويصة مع حمالة الثديين. أبدل يوميا أكثر من حمالة دون جدوى، ولي كومة من الحمالات تثير غيرة صديقاتي. فما أن يعلمن أنني اشتريت واحدة جديدة ويتعرفن على المحل الذي منه اقتنيتها وهي على العموم محلات متخصصة لا تبيع إلا الثياب الداخلية، إلا ويهرعن إلى المحل نفسه لشراء مثلها.

حمالات مبهجة للمس، وللنظرو الحق يقال، إلا أنها تستثير غضبي . على الرغم من نعومتها، وألوانها الجميلة، ومادتها الرفيعة من الحرير والإسفنج الرقيق، والدانتيل، والقطن الناعم ، والمقاس الدقيق، إلا أنني لم أشعر يوما براحة ثديي داخلها. أنظر أحيانا إلى الأخريات بحسد :

– كم تبدو تلك منسجمة ومرتاحة ومتصالحة مع ثدييها ..ليس مثلي أنا !!

في التاسعة من عمري بدأت معاناتي.

فتحت عيني ذات صباح فإذا بجسمين مثل حجرين يتربعان بإصرار تحت جلد صدري. الحق أن الموضعين منذ مدة كانا يؤلمانني من حين لآخر، ثم يختفي الألم لفترة طويلة إلى أن أنساه، ولكن هذه المرة استقر الألم بشكل نهائي، وبدا شكلهما الدائري يأخذ مساحة واسعة من صدري .. ومع الوقت بدآ في التوسع والتعاظم والانتفاخ رويدا رويدا .

في المدرسة أستمع إلى التعليقات الساخرة القاسية من طرف زملائي الذكور في القسم، يرفقونها بضحكات مموهة عن البنات اللواتي بدأت حبات الفول تظهر تحت مآزرهن .. إلا أنا :

– ألم تلاحظوا يا أصحاب ؟ ! «أندلس» الوحيدة بينهن، لم نر عليها تغيرا أو انتفاخا ؟؟؟

لم يكونوا على علم بحيلتي. أضحك في دواخلي على ذقونهم، تعلمت مبكرا أن الذكور رغم ما يدعونه من

خبث، نستطيع أن نخدعهم ببساطة. لم أستغرب ،فيما بعد ،عندما علمت في درس علم النفس أن دماغ الرجل يفكر في حركة تندفع في اتجاه واحد مستقيممثل حصان ملجم، بينما دماغ المرأة يفعل ذلك في اتجاه حلزوني.

كل صباح نكاية فيهم، أوقظ عمتي ليلى، فتعصب صدري بمشد صيدلاني مثل ذاك الذي يستعمل عادة في شد الجروح. تلويه مرات عديدة حول صدري إلى درجة أن يختفي النتوءان .ألبس ثيابي الداخلية بهدوء تام ،ثم المئزر الزهري.. ثم لا شيء يظهر.

صدر مسطح ..لاشيء...أحمل محفظتي وآخذ طريق المؤسسة التعليمية شامخة الرأس يغمرني إحساس بالانتصار .على من ؟ لست أدري.

فخورة بفكرتي الخارقة. في قرار نفسي يتعاظم زهو وأنا أسخر من زملائي الذكور، بينما هم يهمسون في آذان بعضهم ويشيرون إلى صدور البنات ومؤخراتهن. لم يكونوا على علم بالمشد الصيدلاني القطني تحت ثيابي، يلف صدري حتى ليكاد يحبس أنفاسي .. لم يكن أمر تحمل المشد سهلا لسحقه وضغطه للقفص الصدري مني. أحيانا يحدث أن يضيق نفسي، ثم إذا سعلت فهناك المشكلة ، لأن الهواء الحاصل من الكحة يضغط نازلا من القفص الصدري نحو البطن، فيمتد سعالي غريبا، مضحكا، يشبه مواء حادا متقطعا !

كنت على أهبة أن أتحمل أكثر وأكثر كي لا يفطن زملائي التلاميذ الذكور لما يحدث من تضخم في صدري

.هم يسخرون من زميلاتي، وأنا أسخر منهم .كم كنت أتسلى بذلك وحدي .. لم يكن أحد بين الأرض والسماء من جن وإنس على علم بحيلتي. عمتي ليلى، الوحيدة ، التي كانت محط ثقتي وحافظة سري.

أستيقظ مبكرة، أهزها بقوة كل صباح، أوقظها وأنا أحمل العدة. وإذا ما تباطأت في النهوض أو تلكأت :

- أووه أرجوك أن تتركيني أواصل نومي يا أندلس. !

عمتي ليلى ليست نشيطة مثل عمتي زهية بل كسولة وتحب النوم والارتخاء لساعات. ولخشيتي من أن تعود إلى نومها الثقيل كنت أفتعل البكاء والشكوى، وأحذر من أنني سأصل متأخرة إلى المدرسة بسببها. تنهض عمتي ليلى على مضض. نصف نائمة أو نصف مستيقظة. تأخذ المشد مني بيدين مرتخيتين، وتدوره عدة دورات حول النتوئين ضاغطة على صدري، ثم تحزم الطرفين حتى لا يرتخي المشد طوال اليوم. ثم تزجرني :

- ما نعرفش منين جبتي هاذ الفهامة .. آيا خلاص أندلس.. وسعيني يرحم جدك !! ثم تعود لتغط في نوم عميق.

لاشيء يظهر للعيان. فخورة بنفسي وحيلتي كنت. راضية أنا.. جد راضية ..صدري مثل لوحة ملساء .

كم تضاحكت صديقاتي بعد مرور عدة سنوات ،وهن يلاحظن تطاير أزرار قمصاني لقوة ضغط صدري وضخامته، ثم وهن يساعدنني في التقاط الأزرار التالفة :

- أين كنت تخبئين هذه الأهرامات يا ملعونة ؟؟

- تحت مشد عمتي ليلى. !! أجيبهن، فتندلع عاصفة من الضحكات المتتالية تشبه تساقط مطر من الزجاج المكسور..

قررت مرة ألا أرتدي حمالات صدر، وبقيت هكذا أسبوعا كاملا. الأمر متعب. والله متعب !! شعرت أنني أحمله وحدي ، كنت عاجزة على أن أحمله وحدي . تذكرت جملة جدتي» لالة أندلس» في سياق آخر مختلف :

- لا أحد يستطيع أن يحمل صدره لوحده . !

جدتي لالة أندلس حكيمة في اختيار المثل الصائب . دقيقة في نسج الحكاية اللائقة بالمقام . تعلمك درسا لن تنساه ما حييت، وتترك لك الرغبة العارمة معلقة حول عنقك مثل جرس. الرغبة في أن تحكيها لغيرك.

- لا أحد يستطيع حمل صدره لوحده يا صغيرتي أندلس. الصدر أثقل ما في الإنسان، وما تبقى لا شيء .. ومن لا يجد من يقاسمه أثقال صدره، يمتلئ قلبه بالدود.!!

ثم كم هي فظيعة تلك الصورة التي رسمتها جدتي لالة أندلس في مخيلة الطفلة مني، وهي تحدثني عن امرأة لم تستطع حمل أثقال صدرها بمفردها وهي تنتظر زوجها الجندي الغائب في الحرب .

وحيدة في بيتها. تنتظره. تغلي انتظاره في قهوتها. تسكرها أو تفضل مرات أن تشرب انتظاره مرا أسود دون سكر أو حليب.

تنظر من نافذتها فترى انتظاره سحابة تمضي، و أخرى تجيء ماطرة... دمعا يهر من السماء.

كل شيء صامت و حزين و أسود حولها... تسيج أسلاك الانتظار المكهربة أفقها..

يفيض قلبها داخل صدرها بما لا يقال.

لا أحد يستطيع حمل أثقال صدره بمفرده !!.

الذي لا يجد من لا يشكو له يمتلئ صدره بالدود. تقول لالة أندلس جدتي و تحكي لي الحكاية :

تشتعل فكرة في ذهن الزوجة المتروكة للوحدة، المشغولة بقدر الانتظار مثل أغلب النساء :

- لابد لي من صديق مؤنس يحمل معي صدري . !

تلمع الفكرة. تمزج المرأة التراب بالماء، و بالخيوط والحجر.. ترفع قامة منه، ثم عنقا حانية، ثم وجها، وعينين، وأذنين، وأنفا، ثم تنزع خاتم الزواج من أصبعها، تصنع به الفم. تقبل التمثال الترابي تعانقه وتعطيه اسما :

-أسعد. أسعد... سأسميك أسعد. !

..آه يا أسعد .. كنت متعبة ووحيدة و حزينة، لكنني أشعر أنني أحسن حالا الآن..أشكرك لأنك هنا معي في وحدتي،

تحمل معي أثقال صدري في هذه الوحشة المحيطة بي، وغياب زوجي الذي ابتلعته الحرب القبيحة .

أيام تذهب، و أيام تجيء- تقول جدتي لالة أندلس - وأسعد يستمع و ينظر إلى المرأة في صمت..

- آه يا أسعد لولاك لأكل صدري الدود، شكرا يا أسعد.

و تطوق جسدا من تراب وخيوط و حجر، وتقبل فما من ذهب..

عند أقدام أسعد تجلس المرأة تحدثه .تنام و تصحو، و تتعطر وتغني، ويحدث أن تطلق زغرودة أشبه بأقواس قزح فتهب العصافير من كل صوب.

عند أقدام أسعد، تمشط الزوجة شعرها، و تبدل الأثواب التي ظلت في خزانة النسيان. تدوّي الضحكات المرحة إلى أن تستلقي متعبة سعيدة.

- آه يا أسعد.. لولاك لأكل صدري الدود.

و تطوق جسدا من تراب و خيوط و حجر، و تقبل خاتم الذهب.

عند أقدام أسعد، تنتظر المرأة الوحيدة، وتحلم، وتغني، وتقص عليه الحكايات البديعة، وتشكو له، وتفرح، وتغضب، وتسب، وتكسر، و تضحك عاليا عاليا.. وتجهش بالبكاء المر الحارق ثم تأخذ يده الترابية بين يديها وتغفو.

عند أقدام أسعد تشرب المرأة شايها الدافئ بالنعناع، وتأكل ما تحضره بتفنن و رثته عن أمها. عند أقدام أسعد

يبدأ النسيان، عند أقدامه أصبحت أسعد، و لم تعد تنتظر أحدا.

لم تعد المرأة و حدها ،لم يعد يمتد الليل في النهار، و النهار في الليل يمتد . لم تعد و حدها تنام.. لم تعد و حدها تستيقظ الأيام وراء الأيام.

لم تعد تحمل صدرها بمفردها .

(وتعجبني الحكاية حين توشي أطرافها جدتي «لالة اندلس» وتزوقها وتنعش الحوار فيها)

- من يدق الباب؟.

- تفتح، يطل زوجها العائد من الحرب، يعانقها ويسأل.

- أراك سعيدة مبتهجة.. كم أنت جميلة.. مع من كنت تتحدثين؟

- مع أسعد!!.

- من أسعد هذا؟!

- تعال أعرفك عليه.. إنه صديقي أسعد !

- تمثال من تراب؟!

- لا إنه أسعد صديقي. إنه يستمع إلى ببالغ الاهتمام والحب، إنني أحبه جدا، لولاه لأكل صدري الدود.. ثم إنه يعرف عني كل شيء يا عزيزي.إنه يساعدني في حمل أثقال صدري ..

يأخذ الزوج العائد من الحرب الخاتم من موضع الفم من أسعد، يرجعه إلى أصبعها، ويهوي بالفأس على كومة التراب.

- لا.. لا.. صديقي أسعد. إنه صديقي أسعد!

تتسع عيناها و فاها، ينشطر الصنم إلى نصفين، ويخرج الدود.. الدود الدود..

- آه يا أسعد. لولاك ماذا كنت سأصير بهذا الدود كله؟ من غيرك ساعدني على حمل أثقال صدري ؟

فهمت منذئذ لماذا يمتلئ بيت جدتي لالة أندلس بالضيوف، لماذا تجلس النساء في ساعات زيارة المساء يتحدثن بحرارة. فهمت أن الصدور ليست لأصحابها وحدهم وإلا تضحى موحشة. تعلمت أن صدور الناس مشتركة. أن صدور الناس مشاع.

كان علي أن أبحث عن مساعدة لحمل صدري. الحمالات لا تكفي..

هكذا دائما هي مشكلتي مع حمالات الصدر كلما انتابني شعور قوي عارم تنتفخ ثدياي على غفلة ،ويرتفعان ،ويضغطان بقوة تحت الثياب . يسقط الرافع من على كتفي الأيمن .أعدله فإذا بالرافع الأيسر بدوره ينزلق. ويحدث أن ينقطع الرافع أو الرافعان معا، فيحدث الشغب تحت قميصي، ثم لا أعرف كيف أمد يدي لتعديل ما انفك ،خاصة إذا حدث هذا وأنا في الشارع أو في مكان عام.

كم أحاول ألا أوجد في موقف ضيق مثل الذي أنا عليه الآن، كي لا يعتريني شعور بالغضب أو الحزن أو الخجل أو الفرح أو القنوط أو أي موقف قوي يهزني، سيتعاظم صدري ويزداد حجما وثقلا وكأنما لي أربعة أثداء، فيستسلم الرافعان أويتقطعان.

منذ أن بدأت الأنوثة تملؤني مياهها العارمة الهائجة الملونة ، أول ما أذهلني وأقلقني وأبكاني ،هو هذا الضغط المتصاعد في الصدر، والشعور بالألم في الحلمتين. لم أكن أجد جنبا مريحا أنام عليه. كبرت هكذا وكبر معي وبداخلي هذا الإحساس الغريب. لم أخبر أحدا بسري الذي بدأ يشكل أكبر انشغالي .. كأنني ولدت بقنبلتين موقوتتين معلقتين على صدري. أتحسس حلمتي، كأنما هما رصاصتان تريدان الانفلات نحو المجهول. ألم ضاغط يرافقه انتفاخ وانقباض في وسط صدر، وتتصاعد الحمرة إلى وجهي، تفضحني.

في البدء، حاولت أن أحدث جدتي» لالة أندلس» في الأمر، لكنني تراجعت.

لم أنس تعليقها ذات يوم وهي تراني في ارتباكي، وأنا أحاول تثبيت حمالتي بتحريك أعلى الكتفين لتعديل الشريطين الرافعين فوق كتفي. كنت أخشى لسانها، ترميني بنظرة من عينيها الخضراوتين حادتي النظر، وتلقي بجملتها ،وكأنما دون اكتراث :

- صدرك أكبر من رأسك .. مثل أمك. !

لم أفهم إن كان الأمر مدحا أم قدحا .. تصبب العرق من جبيني، وغزا شعيرات جسدي كلها ،وتواريت عن ناظريها

مسرعة وأنا أخبئ صدري، ضاغطة بكفي على حلمتي النافرتين فجأة تحت ثوبي، من غضبي أو ارتباكي ربما.

ارتكنت إلى سرير متوار في غرفة خلف الظلمة ثم بكيت في صمت، ولأول مرة شعرت بلذة لمسهما، اجتاحت جسدي ملايين الذبذبات المكهربة، أصابتني رعشة مدوخة واكتشفت ذروة النشوة.

هكذا إذن .. كان لأمي مثل ضخامة صدري .. فإذ ا كنت أشبهها على الأقل في هذا فليس الأمر سيئا أبدا، يشاع في العائلة أن أبي فتن بها أيما فتنة ،لولا أن امرأة أخرى، ابنة عمة له تدعى نوارة غارت منها، فسقته شايا مسحورا ساعة العصر ، فتغير قلبه عنها لفترة لم تدم طويلا . لم أستفسر عما يعنيه ساعة العصر بالذات ، سأجد طريقة ما ذات يوم لطرح السؤال .

لماذا شاي العصر بالذات؟

« والعصر إن الإنسان لفي خسر.»

لم تكن جدتي « لالة أندلس» تحب زوجات أبي اللواتي أتين متتاليات عقب عودته من الجبل ورفقائه المجاهدين. أتين الواحدة بعد الأخرى. زوجات أبي عديدات، لكن أبي في زيجاته لم يجمع بين زوجتين اثنتين أبدا. ربما لثقافته الدينية العميقة المختلفة عن السائد، فهو في رؤيته وفلسفته يؤمن بأن الجمع بين اثنتين حرام ،وفي رأيه لا يمكن العدل بين زوجتين مهما كان.

- المرا صوب راجل..لا يمكن أن نعزف بإتقان على آلتين موسيقيتين في الوقت نفسه.

هل أبي على حق ؟

علمت أن للناس مذاهب في هذا الأمر بالذات ..يرن في رأسي صدى يطفو. تجلوه الذاكرة، و تعيدني إلى طريقي اليومي نحو المدرسة. يوم شاهدت زوجين في حالة استنفار وشجار حادين، كانا غاضبين ربما أنساهما الغضب أنهما في الشارع :

- لن أسمح لك أن تتزوج علي ..طلقني قبل ثم لتتزوجها إن أردت و الله يعاونك. !

صوت المرأة كان حادا مثل شفرة، كان صوتا مثخنا بالكسور.

- لا لن أطلقك .وسأتزوج وربي كبير. أنا رجل، والله أجاز لي شرعا الزواج بأربع نساء . !

صرخ بها وهو ينتصب أمامها بعنجهية .

ردت المرأة بغضب شديد وقد تطاير بصاقها في وجهه ، دون أن تكترث للمارة :

- قل لي إذن.. لماذا لم يخلق لك الله أربعة أعضاء تناسلية، تتناقر كالنواقيس من تحتك ؟؟

كتم بعض المارة ضحكاتهم، وبمحاذاتي كان يسير شيخ ملتح ردد بصوت متهدج وهو يضع يديه على رأسه :

- أعوذ بالله أعوذ بالله .. كفرت الولية المخلوقة .. ثم اشتدت هرولته واختفى وسط الناس.

واصلت طريقي كان ضجيج الشارع يغطي على أصوات الزوجين، وبقيت حركات أذرعهما المتشنجة الغاضبة تلوح في بحر متلاطم من المرور.

أبي ليس هكذا .. لا يجمع بين امرأتين أبدا. زوجاته عديدات ولكنهن غير متشابهات. فمنهن البيضاء والسمراء والشقراء والحمراء. لم يتزوج أبي من امرأة سوداء، ولا من فرنسية. لا أشك في أنه مر بإحداهن ذات ليلة، ولكن الذي لا أشك فيه أبدا هو أنه لم يتزوج زواجا رسميا من امرأة سوداء أو من امرأة فرنسية، خوفا من أمه لالة أندلس أو إرضاء لها، لسبب لم تنكره في يوم من الأيام. لالة أندلس لم تكن تخفي حقدها على المستعمرين الفرنسيين، الذين سجنوا زوجها السي العربي وعذبوه ثم قتلوه. ظلت تتألم لأن زوجها حبيبها استشهد تحت وسائل التعذيب وأن معذبيه كانوا يتلذذون لآلامه و سماع صرخاته الموجوعة ، فكيف يمكن إذن أن تقبل لالة أندلس بأحفاد من دم القتلة ..هكذا كانت تردد.

تدير لالة أندلس وجهها كلما مرت زوجة جارنا الأستاذ إسماعيل، الذي جاء رفقة زوجته من سوريا كي يدرس مدة سنتين في الجزائر المستقلة. بابه قبالة بابنا بالضبط. زوجته هدى أنطالكي الشابة شكلها أوروبي بشعرها الأشقر وعينيها شديدتي الزرقة. لم تكن لالة أندلس تبادلها السلام

ولا الكلام، وتتحاشى النظر إليها كلما مرت صدفة، وكانت تعلق بمرارة .

- حتى السوريين تسلطت بيهم بنات الرومي. !!

وحين علمت لالة أندلس بأن زوجة الأستاذ إسماعيل سورية من حلب وأمها من أصل تركي، اعتذرت لها عما صدر منها من جفاء لا يليق بحسن الضيافة .منذئذ أصبحت هدى مثل واحدة من بنات العائلة لا تبرح بيتنا إلا حين عودة الأستاذ إسماعيل من العمل. تعلمت هدى طبخ أطباق الكسكسي والمعمر والمحمر والطاجين الحلو، والمقروط، والقريوش وغيره، وبالمقابل عبق بيتنا بروائح الطبخات السورية العريقة مثل المقلوبة، والمجدرة، والكبة، واليبرق، والمحشي، والمكدوس، واللبنية.

ظلت رسائلها المليئة بالحنين الجارف إلينا، وإلى بيتنا، وإلى مجالسنا، وإلى البلد، تصلنا بانتظام بعد عودة هدى أنطالكي إلى دمشق.

كيف لأبي أن يجرأ إذن على أن يتزوج بفرنسية ،بينما إرضاء أمه لالة أندلس تبدو غايته المثلى . !! ؟

ثم إنه لن يستطيع أن يقترن بامرأة سوداء. بينما لالة أندلس لا تخفي اشمئزازها وتطيرها من كل شيء أسود .فلا هي تلبسه، ولا هي تأكله ولا هي تتغطى به. فكلما صادفت غرابا أو قطا أسود إلاوامتعضت وامتقع لونها، وتمتمت وهي تقرأ آية لا أدري ما هي.

سيكون من المستحيل أن ترضى بزوجة سوداء لابنها.

هل جدتي لالة أندلس عنصرية وهي البيضاء مثل الثلج؟ أم أنها تحقد على عسكر «ساليقان»، هؤلاء المرتزقة المجندين ضمن صفوف الجيش الاستعماري الذين تتحدث عنهم باحتقار. وتحكي لنا أنهم كانوا أكثر عنجهية وقسوة من الجنود الفرنسيين أنفسهم في التعامل مع الأهالي، هؤلاء الأشداء، شديدي القسوة .بلا رحمة وبلا ملامح ؟

ما سر احتقارها وكراهيتها للسواد إذن؟

قد يكون هذا وقد لا يكون .. هل هناك احتمال واحد وارد أن يكون أبي قد تزوج ذات يوم من سوداء سرا ؟؟ لكن على كل حال لم تكن أكثر حظا من الأخريات. فلا تكاد ترتاح الواحدة بين ذراعيه، وتسخن مكانها في سريره، حتى تأخذ أخرى بتلابيب شغافه، فيسرع إلى الطلاق ليتزوج من جديد. نساء ـ تقول جدتي ـ تخاطفن أيامه ولياليه وتوزعن أمواله، وضيعن وقته.

لا أحد يستطيع أن ينكر أن أبي واحد من هؤلاء الرجال الذين رغم بساطتهم الظاهرة وعدم اكتراثهم بالمظاهر، خلقوا بوسامة وجاذبية طبيعيتين شديدتين. لا يقف المقترب منهم دون انشداه، ودون شعور جارف بان ريحا قوية لذيذة تدفعه نحو الهاوية.

هل لأبي شبيه بين الرجال.؟ أبدا. هي قناعتي منذ أن كنت طفلة نحيلة ،طويلة الضفائر، شديدة الشحوب. كانت يدي الصغيرة تلتف حول إبهامه في شوارع المدينة نتجول معا. كعادته يمنحني وقته كاملا بسخاءيوم العطلة. يشتري لي الحلوى، يفضها أمام عيني المشرعتين من ورقها

السيلفان الملون الشفاف، ثم يقدمها لي والسكر الملون يكاد يسيل بين أصابعه.

ما زالت موسيقى خشخشة الورق الملون بين أصابع أبي البلوريتين تدغدغ طبلة أذني. يروي لي قصصا خارقة، عن ناس طيبين، وآخرين في منتهى الشر والجبن. يصور لي حيوانات رائعة تتكلم مثل الفلاسفة، عرفت في ما بعد أنه كان يستقيها من ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وخرافات لافونتين. وعلمت أنه كان يخترع لي قصصا من عندياته. يسخر لي خياله. لي وحدي. يأخذ كل الوقت اللازم كي يختار ويشتري لي الثياب الجميلة والأحذية والجوارب الملونة.

– أريد الفستان ذوالجيبين ،وذلك الحذاء المزين بحبة الكرز الصغيرة !

تحذره جدتي لالة أندلس من مغبة تدليلي. أما هو فكان لا يتأفف أبدا من دلالي وتلكئي وبطئي في الاختيار، ويقول لي مبتسما :

– أمك أيضا لم يكن يعجبها العجب. كان ذوقها صعبا ولم تكن تستسلم للأشياء العادية، كانت دائما تبحث عما لا يراه الآخرون ..ومن شبه ما ظلم. ! ثم يسترسل ضاحكا.

أرقب وجهه المشرق بانشداه. لم أكن وحدي ،كانت البائعة تتسلقه عيناها في شغف. امرأة أخرى. وبينما هي تسترق النظر إليه، ربما عن سهو ليس إلا، رفعت لباسها كاشفة فخذها كله كي تقيس فردة حذاء.

أحبه ..كم أحبه..

كل فتاة بأبيها معجبة، وكل شيء يفضح افتتاني به ..دلالي و ذلتي وخضوعي وانشغالي وانزلاق الأشياء في عيني، وتدافع الحيتان المفزوعة في صدري ..لست أرى سواه..هو أبي، هو أمي، هو أخي.. ألم يمنحني اسم أمه أندلس ؟هو سلطاني وعبدي.

أنظر حيث يقع البصر منه، عيناه نافذتي وسمائي لا أراه إلا مبتسما في وجهي ..يبتسم، شلالات الضوء تحيطه، لا أصفى ولا أبدع ولا أبهى.. كم هو وسيم أبي . !

أرقب كل ساكن ومتحرك حوله ..النساء يرمقنه بنظرة. هل أدركها فعلا. واحدة منهن تعمدت ترك صغير لها خلفها.ذريعة معقولة للالتفات. مجرد نظرة.. عنوة تفعل .. هل من حقها ؟؟.

هو لي . !

هو لا يدري ما يجري. يبتسم ،فقط يبتسم. جميل قميصه الأزرق الفاتح ذو الكمين القصيرين. يترك ذراعيه طليقتين صافيتين. مغطاتين بزغب أسود رقيق. أضع خدي عليه..حرير. !

يدب هواه في مياه بصري، في كينونتي وقدري .حين يضحك تكاد النار تضيء في صدري، وكأن الله الذي سواه جل جلاله،مركز كل قدرته وحسن فعله وفنه في هذا الوجه : وجه أبي. أساريره توقظ ما غفا من الدنيا حولي.

كل الشوارع فارغة إلا منه . كل زحام يفضي إليه . هو الشمس و ما عداه عباد الشمس .أشعربيدي الصغيرة في يده دافئة .. نساء يمررن بنا ، تلتفت النساء، أشعر بكآبة دفينة، لكن يدي الصغيرة في يده دافئة.

أطمئن ،أزهو ،أترنح، يغشاني فرح عارم، ثم ..

ما هذه الكآبة اللعينة التي لا تلبث أن تنتابني..

يناديني .صوته يسري في نفُسي .. يجول مجال الروح مني.

- ثم ماذا يا أندلس ..ألم تعجبك الحكاية ؟؟ !

إنصاتي إليه تضرع. صوته المنسدل كالربابة أشربه ماء زلالا هرّ من السماوات البعيدة على حين غرة .بحة حنجرته، تشبه بحة في صوت جدتي لالة أندلس ولي شيء منها في صوتي، تستقر في نقطة من رأسي بين طبلة الأذن وطرف العين.

عيناي لا تبرحان وجهه بينما يقص علي أحسن القصص، كأنني أرى و أسمع أصحابه، ورفقاءه ،الأحياء منهم والذين استشهدوا، يذكرهم بخير ويقول لي :

- لم يكن الحصول على الاستقلال بسيطا يا صغيرتي. جدك استشهد في بداية المقاومة، لكن قوافل الشهداء يا بنيتي طويلة. !!

كأنني أشاهد تحرّكاته بين الجبال، وبزّته العسكرية، والراية المرفوعة عالية في يده، وشجاعته وإقدامه وحلمه بتحرير البلاد، ورفضه لذل وهوان الاستعمار.

إعجابي به لا حدود له، حين يرتل القرآن والناس نيام، أوحين يرشق بالموسيقى أشعار المتنبي أو فيكتور هيجو،أو حين يقلب صفحات المعري والتوحيدي في خشوع..كتبه وحدها زهوه وانتصاره.. صفراؤها ،وبيضاؤها، وحديثها و قديمها. وتبختر قلم الرصاص على هوامشها. على كل كتاب قرأه يترك ملاحظات لا بد منها، يسجلها بقلم الرصاص على الهامش كي لا يؤذي الكتاب، خط يده مازال يأسرني.

يدي الصغيرة في يده دافئة.

يرافقني أحيانا إلى طريق المدرسة .. ثم يخرج من جيبه نقودا يضعها في يد امرأة فقيرة جالسة على قارعة الطريق تحتضن طفلا بذراع وتمد الأخرى للمارة، أو لشيخ بائس يحتضن عصاه وألمه .. أرمق سحابة حزن على محيا أبي..

أسبقه خطوة أو خطوتين كي أراه جيدا. كأنني تعثرت، يلتقطني مثل زهرة ثم يضحك و يضحك.

- انتبهي للطريق يا أندلس !!

ينتظرني أحيانا عند باب المدرسة عائدا من مقر عمله. أتشبث بذراعه و الليل على بعد خطوة. ينظر إلى السماء.. عيناه نافذتي.أرفع بصري : ما هذا الكون العجيب الموشوم بالضوء؟ ! يقول لي إن أمي هناك في تلك السماوات تطير ومن حولها الملائكة .. أتخيلها ثم أكاد أراها ، ثم أصيح به دون سابق إنذار:

- هي هناك .. إني أراها . !!

أفقد وزني. أشعر بالوجل. أو ما يشبه الخجل. جاهدة أحاول تثبيت قدمي على الأرض دون جدوى. أطير..أتشبث به..أضحك عاليا كي أخفي ارتباكي.

يدي الصغيرة في يده دافئة، أنا الآن في أمان.. أجره في طيراني إلى أعلى، ملامح الرضا كله، أطمئن.

ما هذه القوة التي فاجأتني ؟ كأنني طير طليق، أجر أبي حبيبي حيث أطير، ثم إلى أعلى، بسرعة عجيبة أعلو به..

بين السبابة والإبهام أسحب قشرة السماء، كمن يسحب غلالة حليب ساخن برد، ينهمر على شعره الماء، لامعا.. شعره الكثيف يتناثر، يرده بحركة من رأسه، هكذا .. فيرجع عنيدا منتصرا فوق جبينه الناصع. هكذا..

أبتهج.

نصادف في علوّنا نجوما ضائعة تبتسم لنا ..أغار منها عليه.

وهاتان ما هما ؟ أعينان هما أم نجمتان؟

يشير إلى مراكب ورود تجرها خيول بدون سروج ولا غزلان. في طريقنا نصادف ملائكة بملامح هادئة ،و نلتقي مخلوقات مدهشة، تنقر على آلات لم يسبق لي أن شاهدت مثلها، ونرى جيادا بيضاء سابحة في الفضاء، وأطفالا، وأرجوحات، و حلوى، ولعبا ضخمة بألوان زاهية، وحبالا من العقيق الأبيض، والأحمر تلوح و تتأرجح.

أترك يده .. من أين لي بهذين الجناحين الشفافين ..؟ أحوم حوله مثل فراشة حول شعلة حارقة، ألتقط بعض

النجوم السابحة بقربي أزين بها كتفيه ..يتظاهر بالدهشة والذهول..أخلع حذائي، أرمي به بعيدا، و أركن إلى نجمة صغيرة وأنا أتصنع الحيرة ، أنظر إليه بلهفة ..هل سيمضي لالتقاطه.؟

يمشي عالي الرأس، هكذا.. الكتف الأيمن إلى الأمام أولا ، ثم الكتف الأيسر،هكذا.. .

تميل ركبته اليسرى حيث تعتدل اليمنى ، هكذا ..

لم أكن أعرف كيف يمشي الناس عادة، قبل أن أنظر إلى أبي وهو يسير .

يعود ويقترب مبتسما وحذائي في يده صغيرا، صغيرا.

سبحان من زين منه الجبين، وأودع في لحظه بنت العنب، وفي صدره منبت الشعر والعجب.

يمشي على غيم أو على كوكب صغير ، يقترب..

أحاول أن أبقي على عيني مفتوحتين، يصيبني ذعر ..لماذا لست أميزه؟أهل سأنام ؟.

خوفي عليه من السقوط بعيدا عني ..

أبحث عن يده، يمنعني تراكم النجوم، وحبال من العقيق الأحمر والأبيض ملتوية متهدلة تتأرجح في الفراغ الرهيب.

- الحمد لله نزلت الحمى .. (هي جدتي لالة أندلس تضع منديلا مبللا فوق جبيني)

- بابا..بابا .. بابا ..

- هاوّه جاي يا بنيتي.. (صوت جدتي يحاول أن يطمئنني).

زوجته خلفه تنظر إلينا. .يلتقط يدي بين يديه ..أكور جسمي الصغير حولهما ..أريد أن أحولهما جزءا مني، أو أتحول جزءا منهما ،أصبعا سادسا مثلا.

أتجنب النظر إلى زوجته الجديدة خلفه، إنها جميلة، أكيد أنه يحبها، أخفي وجهي .. صوتي المخنوق أكابر ضدّه :

- بابا.. بابا.. بابا ..

- ستشفين قريبا يا بابا يا صغيرتي ..سيأتي الطبيب يا أندلس لا تخافي بنيتي ..

يؤنثني ويذكرني كما يشاء.. يمتلئ رأسي بحضوره الغائب .. بغيابه الحاضر.. يتشوّك الجسم الصغير الهش مني ذو السبعة أعوام.

قنفذ وديع ألقي فوقه بالماء.

من تحت شوكي و أربي و تضرعي، أرمق أبي يبتعد .. يطوقه ظل امرأة جديدة ..هل ستأخذ مكان أمي ؟ ثم أغضب من أمي.. ما الذي تفعله هناك بين النجوم أو بين الملائكة ؟ لكنني لا أغضب من أبي البتة.

تبدل جدتي لالة أندلس قطعة القماش المبلل على جبيني بهدوء، ألمح دمعة تترجرج في عينيها، كأنها تفضي :

-عندما تكبرين ستفهمين.

تتمكن النار مني. يأتي الطبيب يجس نبضي. أمد يدي في الفراغ.أبحث عن يد أبي. أتجنب هاوية ما. أمسك حبال العقيق الأبيض والأحمر المترنحة في الفراغ. تتقطع فتنفرط حباتها، تتهاطل على وجهي وصدري النحيل الغارق في النار.

كم هو موجع وقعها فوق بؤبؤ عيني الحارين. تتمكن النار مني. جمارا أصير، أو حبات من العقيق الأحمر والأبيض تنفرط في الفراغ الرهيب، تصلي وتسبح بينما يبتعد أبي الأحب :

و حقّك أنت المنى والطّلب

و أنت المراد و أنت الأرب.

أقوم من فراش المرض نحيلة أكثر وشاحبة، ويظل أبي هو أبي حبيبي وهو أمي و هو سلطاني وهو عبدي.

يدي الصغيرة في يده دافئة، وفي تجوالنا كنت ما أزال ألمحهن، يختلسن النظر إليه مبتسمات، و أرى في عيونهن بريقا غريبا لم أفهمه، لكنني بعد سنين عديدة أدركت سرهن وسري : لماذا تغمز النساء أحيانا، ولماذا يتضاحكن فتتصاعد الحمرة إلى وجوههن، وأدركت من أي ماء ينبع ذاك البريق .

ولأبي صفات هؤلاء الرجال الذين إذا ما مروا في حياة امرأة ما، فهم إما أن يزرعوها قرنفلا وياسمينا ،أوهم يجردونها من نسغها وجذورها ، ويعصفون بها عصفا

وكأنهم أطلقوا عليها قنبلة نووية فتصبح جرداء ومعرضة للعطب.

3

ابن أمه

جدتي «لالة أندلس» راسخة الإيمان أن ابنها شبه أبيه. أوسم الرجال قاطبة، وأشجعهم وأذكاهم قاطبة، وأطيبهم قلبا وليس على الأرض من تستأهله . وتردد دوما وهي تميل رأسها طربا :

- كل خنفوس في عينين أمو غزال، وأنا وليدي حبيبي سيد الرجال. !!

ثم إن جدتي فوق كل هذا لم تنجب غيره، بل ربت بالتبني أربع بنات وولدا أنقدتهم من مخالب اليتم والضياع وتربوا في ظل جناحيها وفي عز ما ورثته عن أهلها دون أية تفرقة، حتى أنني لم أعرف الحقيقة حتى كبرت .عماتي بقين عماتي وعمي ظل عما عزيزا علي.

لم تنجب لالة أندلس غير أبي إما عن قناعة راسخة لديها كما يروي البعض وكما تردد دائما، أو لأن جدي استشهد مبكرا ورفضت أن تتزوج بعده. لم تتزوج بعد السي العربي رغم العديد ممن طلبوها للزواج. لكن الألسنة غير النائمة رددت إن المحظوظ الوحيد من عشاق ودها

الذي استطاع أن يميل قلبها ولو قليلا تجاهه، كان فنانا تشكيليا بوهيميا غريب الأطوار، بشعر مسترسل وقمصان بمربعات دقيقة مفتوحة الأزرار يدعى»يحي الغريب»، ويشاع أن اللوحة التي تتصدر مدخل بيتها من أعماله وبريشته. لم أسمعها أبدا تتحدث عنه ولكن فتحي ابن عمي أسر إلي بما سمعه بأن الفنان العاشق «يحي الغريب» كان يشتغل في تهريب القهوة والتجارة فيها دون رخصة من السلطات الفرنسية. يسافر كثيرا عبر البلاد شرقها وغربها جنوبها وشمالها، يبيع أطنان القهوة ويشتري إلى أن بدأ يؤسس لرأسمال صغير يضمن له العيش الكريم، ويمنحه وقتا حرا لممارسة جنون الريشة والألوان.

في تنقلاته و رحلاته التجارية يبيت في حمامات المدن والقرى المختلفة، و فيها وعنها يرسم لوحات تروي ما رأى ،وشاهد، وتأمل من مناطق ساحرة في البلاد. مر بها بعيون يقظة، متفحصة،عاشقة .كان يوقع أسفل لوحاته في شكل عينين تشبه عيني حبيبته لالة أندلس. ويحدث أن يقف «يحي الغريب» طويلا أمام لوحاته على قارعة الطريق حتى اشتبهت السلطات الفرنسية في أمره. وقد رفع البعض تقريرات عنه جاء فيها أن اللوحات تحمل إشارات ورموز خفية تدعو الأهالي إلى الثورة ،و تحثهم على التمرد .. حين ألقت السلطات الفرنسية القبض على يحي الغريب بعد أن داهمت أحد الحمامات ليلا، عثرت لديه على منشورات وطنية سرية تدعو لاستقلال البلاد ،وتنادي بالثورة المسلحة على المستعمر. وكان هذا آخر خبر وصل عنه.

اختفى» يحي الغريب» في السجون الفرنسية وتحول غيابه بعد ذلك إلى لغز، ثم إلى أسطورة ..

يتحدث أهل المدينة عنه بشعور الانتماء له، ولم يبق من أثره غيربعض لوحاته التي بقيت على قارعة الطريق. لم يعرف أحد كيف اختفت إلى أن عثر عليها، بعد الاستقلال، مخبأة بعناية في ردهة أقدم مسجد في المدينة العتيقة.

يبدو أن لالة أندلس اكتشفت حقيقة «يحي الغريب «بعد اختفائه فعظم في عينيها بعد حادثة القبض عليه .. لم تكن تقل عنه قبل اختفائه أنه ضيع بوصلته. حين طلبت منه أن يبتعد عنها كان يقضي النهار غير يدور في الأنحاء، يرسم طوال النهار ثم ينام قليلا ويتجرأ أحيانا على توسد عتبة بابها.

يشعل السيجارة بالسيجارة، ويزوج اللون للون في أعراس صامتة، ويلتقط الريشة مثلما يلتقط المايسترو مسطرته، ثم يهرب النظر منه بعيدا حيث لا يستطيع أحد رؤية ما يراه، فيضع اللمسة تلو اللمسة بأناقة حركة الذراع، واليد، والكف، والأصابع، فتخرج من مياه اللون أشكال وعوالم كأنها مخلوقات سحرية، مبللة، صاعدة من أعماق البحر.

رق لحال العاشق الناس، وعائلة لالة أندلس، وحتى والدها وأخوها اللذان طلب يدها منهما ثلاث مرات، وكل مرة كانت تجيب بالرفض قائلة :

– كيف .. يا ناس خافوا الله أ تريدون أن أتزوج من رجلين ؟

لم يستطع أحد أن يقنع أندلس أن زوجها « سي العربي» الذي اعتقلته السلطات الاستعمارية بتهمة الانتماء إلى حزب محظور يدعو إلى الانفصال والاستقلال عن المتروبول قد استشهد. كانت دائما تخبرهم بأنه أقرب إليها من حبل الوريد، وأن حضوره يملأ البيت، ويملأ حياتها ،ونومها، ويقظتها، وسريرها. ولا مكان لرجل آخر. ..تستيقظ كل صباح، وتلقي على الجميع كلمتها اليومية :

- قولوا خير وسلام شفت البارح سيدي العربي في المنام. !!

وتبدأ اليوم على سيرته، وتنهيه عليها إلى درجة أن من حولها يكاد ينتهي بتصديق أن العربي حي يرزق ،لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

في صباح ممطر دق الباب بعنف، كان جنود فرنسيون يطلبون لالة أندلس إلى مقر الاستنطاق بتهمة انتمائها إلى عصابة «يحي الغريب»، والتنسيق معه للإخلال بالأمن وبالنظام العام ودليل تهمتها صورها التي تملأ لوحات يحي الغريب، وعينيها الرابضتين أسفل كل لوحة بمثابة توقيع.

أخذت أندلس على متن سيارة جيب إلى مركز تعذيب خلف مرتفع بمحاذاة المدينة .. عذبت أندلس وجلدت بالسياط من طرف أحد الأهالي الخونة المتعاملين مع الفرنسيين. كان يضرب جسدها البض ويحصي عدد الجروح بتلذذ وشهوة جنسية نارية. وتسرب أنه في كل ضربة سياط كانت ترفع صوتها باسم الله واسم زوجها الشهيد الأمر الذي أغضب إلى حد الجنون معذبيها.

لم تمر عملية تعذيب لالة أندلس بلا حساب، فقد قتل جنديان فرنسيان في عملية ثورية في الليلة التالية.

لالة أندلس لا تتكلم أبدا عن هذه الحادثة، وكلما لمح أحدهم لذلك تنهدت ثم قالت بصوت حزين :

- الله يرحم الشهداء !!

نعم ..لالة أندلس لم تنجب إخوة وأخوات لأبي، لأنها لا تحب الإنجاب الغزير وهي لا تتردد في توبيخ نساء العائلة كلما تمادين في الولادات، وجرجرن وراءهن الأطفال العديدين. فتردد ذلك المثل الندرومي السائر المتعالي الذي يفضح الشعور بالسمو والإحساس بالتعالي :

- الدق والعافر ومشقوق المناخر.

تؤمن جدتي بأنه حين ينجب الناس عددا قليلا، يكون أطفالهم أجمل وأذكى .فهم يقتسمون حظ الجمال والذكاء بينهم . وكلما كان عددهم أقل كان حظهم منهما أوفر.

جدتي لالة أندلس قالبها لا يشبه قالب أمي ولا قوالب النساء الأخريات، والناس قوالب. قالبها لها وحدها. لا شريكة لها فيه.

لالة أندلس لا تنتقد أحدا. أنا الوحيدة المستثناة. أنا الوحيدة التي لا أسلم من ملاحظاتها الدقيقة. كل شيء أقوم به لها عليه كلام. تنهرني أحيانا، وتنتقدني دائما، وتقول إنها ليست مجبرة لكي تكرر لي الملاحظة نفسها لأن لها منها الجديد الكثير علي أن أتعلمه في أسرع وقت ، ثم تضيف :

«أهل الأندلس يفهمون بالإشارة»

أتذكر أغنية للمطرب الندرومي الحاج غفور ،يغرد بمتعة فائقة في واحد من مقاطعها «أهل الأندلس يفهمون بالإشارة» !!. وأفهم لماذا تبتهج جدتي لسماع أغانيه.

ويخرج حرف السين من بين أسنانها، مرققا مهموسا وهي تشير إلى أصولها الأندلسية. وتذكرني أن أمي ليست مثلها. وتقول إن أحسن ما في أمي أنها سليلة السي امحند بن بوزيان الشريف، سيد امتداد قارة الرمل ولغة الصمت. ساكن غرف الشمس، وبساتين النجوم، والنخيل، ووبر السفرجل المتربع في الواحات. وليس يشفع لها جمالها وحده، فلو لم تكن سليلته لما رضيت بها زوجة لابنها الوحيد، و لما فضلت ذكراها عن الأخريات.

هل أنا أغار من جدتي ؟ أم أكرهها ؟ أم أحقد عليها؟ أم أخاف منها أم أحبها ؟

لا أدري. كل ما أدريه أنني أخشى ، حين أصبح في سنها، ألا أستطيع الاحتفاظ مثلها بملامح الفتنة والأناقة وصفاء الذهن و الذكاء والحضور.

كم فاجأت شخصيتها سنوات عمري الأولى وما بعدها، وأنا أكتشف العالم من حولي. فاجأتني أناقتها، وطريقة جلوسها، ووقفتها بجبينها المرتفع وكأنها تخشى سقوط تاج وهمي خفي من فوق رأسها، لا يراه غيرها. تشبه الملكات والأميرات الأسطوريات، لا تشبهها في أبهتها أية امرأة أخرى. كم أصخت بسمعي وجوارحي لصوتها ذي البحة المرتجفة. حين تنصت إلى جديثها يتخيل إليك أنها

تتكلم ضاحكة، ولست أدري ما السر في أنها حين تنطق بالكلام ترى الجميع يصغي بانتباه. ثم إن لالة أندلس تعشق قراءة الروايات العالمية وتقول بابتسامة ماكرة أن أباها « الحاج طالب الزرهوني» المسمى «مولاي معتوق» علمها القراءة والكتابة نكاية في المستعمرين الفرنسيين. ولأنه لم يكن يعوزه المال كانت المعلمة «مادام نوني» تأتي إلى بيتهم لتعطيها دروسا وتعلمها اللغات والرياضيات. إلا الجغرافيا والتاريخ فقد حذرها الحاج معتوق بدبلوماسية ولباقة قائلا :

- أنا، يا سيدتي اللطيفة، لا أدفع لك المال ثمنا لكي تقولي لابنتي إن أجدادها هم «الغولوا» les Gaulois وأن بلادها فرنسية.

تحب لالة أندلس الحبق والنعناع والشيح والنباتات المعطرة، تضعها في أصص مختلفة الألوان والأحجام على حوافي النوافذ، وخلف شباك الغرفة المطلة على الشارع ،وتعتني بها. سمعتها ذات مرة تكلمها وكأنما تتحدث إلى كائنات بشرية حية.

لم أر أبدا لالة أندلس تجلس إلى مائدة العشاء دون أن تشعل شمعة وتضعها عالية فوق الشمعدان، وأحيانا كثيرة تزين المكان بوردة تضعها قليلا إلى اليسار من مجلسها. تشدد دائما الملاحظات على نظافة اللباس والأمكنة والأواني. للالة أندلس معرفة متقنة بترتيب الألوان. ولها صفات وسمات تجعلها مثل أيقونة، وتعطيها سحرا غريبا وسلطة معنوية وسط أهلها و معارفها.

في عيد ميلادي الرابع عشر لم تفاجئني وحدي بل جميعنا. قررت جدتي لالة أندلس إقامة حفلة صغيرة بالمناسبة .ربما ليس من أجل عيوني السود، ولكن لأن رقم أربعة عشر كان رقمها المفضل ، تتفاءل به ، وإذا ما سئلت لماذا ، تجيب وعلى الركن الأيسر من شفتيها ابتسامة مبهمة :

- يكفي أن القمر يكمل استدارته خلالها.

دعت بعض المقربين من العائلة، وسمحت لي أن أدعو بعض زميلاتي وزملائي إلى البيت. لن أنسى اندهاش وتفاجأ الجميع في ختام الحفلة الصغيرة وانتهاء الضجيج، حين أحضرت جدتي لالة أندلس آلة عود كانت تحتفظ بها في ركن بعيد من الصالة مثل ديكور منذ سنوات، ثم جلست قبالتنا دون أن تنظر إلى أحد. فكت الريشة الموضوعة في عنق العود بهدوء. عانقته وهو يغرق في حضنها، حنت عليه ، وضعت ذراعها الأيمن فوقه، بينما من بين أصابعها تنقره الريشة الراقصة المرتعشة القلقة، وتستقر يدها اليسرى تداعب عنق العود تحرك أوتاره، فيتصاعد لحن أندلسي حزين سائر. أمام دهشتي واشتداد نبضات قلبي الصغير، بدأت تغني أغنية عريقة من التراث الأندلسي عن الغربة والاشتياق، بدأ صوتها يتصاعد رويدا رويدا، وكأنه طائر يرتفع ثم ينزل فوق الماء ، يفطفط بجناحيه وكأنه يغتسل أوكأنه يلعب، أوكأنه يشرب، أو كأنه يلهو ..

كان صوتها جميلا تدغدغه بحته إلا أن به حزنا معتقا يسري في أوصال اللحن.. كانت تصدح :

- يا غربتي قولي لأهلي...
متشوق ولاشي بيا ..
غير توحشت الغالي .
يا ذاك الطير العالي ..
فوق السطح تلالي ..
روح عند احبابي ..
خبرهم ورجع ليا ..
ما ني مريض ما ني عيان
غير الشوق اللي فناني
.....

كانت الأغنية الحزينة تخطفني، تغيبني، كأنني أبحث بلا لأي بين الحضور عن وجه أمي الغائب. تهز الأغنية توازني ثم تجرجرني مثلما تجرجر العاصفة عصفورا صغيرا غريرا. تحملني، ثم تمرغني في رمل دافئ، تتمركز في خلاياي ،تتسرب إلى شعيرات جسدي جميعها، توقفها، تقشعر مثل نبال تنغرز في لحمي، أراني ..كأن الذاكرة برق لامع، لماع، خاطف يأخذني بعيدا قبل أربعة عشر عاما في أعمق التلافيف من ذاكرتي.

كما لو كنت جنينا في أحشائها ..كما لو كانت تعانق أبي، كما لو كانت تشده إليها. كما لو كانت تسقط على جسمي العاري وأنا في أحشائها غمامات من حرارة جمرهما. أعتصر داخل بطنها. ربما تهوي قربه من شوقها و نارها،

بينما يتملص من بين ذراعيها، يشتهي امرأة أخرى .. أسمعها تبكي وتئن أنينا حارقا يصلني مذاق مر عبر حبل السرة ..تضع كفيها فوق بطنها ،أتحرك تحتهما واجفة .. أخبئ رأسي في أحشائها. أخجل من وجودي داخلها. أود أن أعتذر لها. عن حزنها. أخاف عليها مني. أحاول ألا أتحرك.

أكره وجودي. كأنني أدرك كرهها لوجودي في بطنها...

هل يمكن أن تحبني أمي؟ أن تسامح عثرتي ومجيئي ؟.. أنا الملتصقة بأحشائها. أتكور بين جسديهما مثل حجر حائر .هي لا ترى غيره : أبي .ذلك الهارب منها. المتملص من انشطارها .هي الفارغة من كل شيء، حتى مني من جنينها .هي المتلئة فقط بمعشوقها، أبي، به وحده ..

ومكرهة خرجت.

- يا غربتي قولي لأهلي ..

مالي ومال حالي ..

ماني أنا كيف الناس ..

كل واحد بايت هاني ..

وحدي ما جاني نعاس.

.....

يبللني العرق. يسيل من مفترق رأسي حتى أسفل ظهري. أشعر بثديي يمتلئان. يتضخمان. بحلمتي تخرجان مثل رصاصتين مشتعلتين توسعان ممريهما..

جدتي « لالة أندلس» تغني، أنسكب في غنائها .أفهم لماذا سماني أبي أندلس على اسم أمه، أتخيلني أندلس أخرى أنا هي، وهي أنا.

آه ..كل منا يختاره قدره، ما من أحد يختار قدره.

أنا لست أمي العاشقة، الضعيفة، المطفأة، الحزينة، المغلوبة على أمرها. تستعبدها الظروف ويشلها الغرام..

لن أكون مثل أمي الباكية حظها المتعثر، أحشاء الليل وأطراف النهار.

لن أكون مثل أمي حين تضعني على مضض، جنينا أنثى غير جالب للحظ، غير مرغوب فيه..

تقطع القابلة حبل السرة، قبل أن تلحق بي المشيمة الخارجة على مضض من الرحم .. تقمطني «أميناتا» القابلة التوارقية، تخطفني من حضن أمي، تجذبني من صدرها، تنتشلني، أحاول استبقاء ثديها، كانت ترضعني، فتتطاير قطرات الحليب من فمي الأعمى المفتوح المرتبك، بينما جفناي ما يزالان مغمضين مثل جرو صغير..أ لم تقل أمي شيئا ؟ ألم تحتج وهي في فراش نفاسها؟ أم هي الأوامر هكذا، هي الأعراف هكذا .. ربما لا تريد أن تراني لا تريد أن تتعود على وجهي الصغير .. لم تحتج .

يوجعني الهواء والعطش، لا وقت للانتظار . كانوا عند الباب. سينطلقون بي .. تطلق أمي صراخا يائسا وترمي برأسها إلى الجدار .. تحطني القابلة «أميناتا» على ظهر

جمل صبور، يسير دون توقف، ولا كلل، ولا ملل، ولا تعثر، ولا تدلل ..

– خذوها عند أهل أبيها لا مكان لها بيننا، بعد الطلاق : بنتي عندي وبنته عنده !!

هكذا نطق بحزم أبوها .. جدي.بن سيدي امحند بن بوزيان، ساكن غرف الشمس.

جمل صبور، بوصلته الشمس والماء ورائحة التمر المختمر في أعالي النخيل.

جمل، على وقع خطاه بالغة الدقة ،و الوزن ،تدور الأرض ويدور الشعر، وتلعب الحياة مع الموت لعبة الغميضة.

الجمل الصبور تبتعد خطواته الرتيبة بي : ما بين أمي برحمها وحضنها وحليبها، وبين أبي بغيابه الموجع الحاضر..

أنا بين البينين. وقطرات الحليب تجف على زاويتي شفتي الصغيرتين، الوليدتين، المرتبكتين، الحزينتين، الباكيتين.

يبرك الجمل في وسط الطريق. المسافة طويلة وممتدة بين صحراء والد أمي ومدن شمال والدي. ثم يأخذني القطار والطريق الطويل حتى أصل إلى مدينة الثلج. مدينة باردة من مدن الشمال حيث يسكن أبي وجدتي لالة أندلس والآخرون.

حليب أمي يناديني، لكنه صار بعيدا عني، سيجف هناك وأنا بعيدة عنه، متلهفة إليه. وسترتفع حرارة أمي بسبب حليبها الراكد من دوني، وسيضيق به صدرها

سيؤلمها عدة أيام وليال. لكن لا حق لي فيه : أنا ابنة أبي، وأمي ابنة أبيها .

هكذا هي الدنيا التي ربما سأفهمها. وسأقضي زمنا طويلا من عمري محاولة فهمها وفك وتفكيك بعض طلاسمها.

- يا غربتي قولي لأهلي...

متشوق ولاشي بيا ..

غير توحشت الغالي .

يا ذاك الطير العالي ..

فوق السطح تلالي ..

روح عند احبابي ..

خبرهم ورجع ليا ..

ما ني مريض ما ني عيان

غير الشوق اللي فناني

تغني جدتي لالة أندلس، أمسح عن فمي قطرات الحليب الأولى والأخيرة منذ أربعة عشر عاما. ولأن القمر استدار في هذا العام فعلي أن أقرر الآن و فورا ، أن أختار، أن أكون من أشاء ..إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلا. :

أنا لست أمي. ولتسامحني إن لم أكنها، بعد أن سامحتها لكونها لم تكني .. وكان ما قرره أبوها ،جدي ولد سيدي امحند بن بوزيان :

- بعد الطلاق :ابنتي لي وابنته له . !!

أنا ابنة أبي إذن لا حق لي في أبيها، وأمي ابنة أبيها لا حق لها في أبي.

مبكرة، عارية من رحمها وعطشى لحليب أمي ،فطنت أن مصائرنا بين أيدي الذكور. كيف لي أن أرفض أو أن أقبل ؟؟

الليلة تكتمل استدارة القمر، أربعة عشر عاما، سأراه من هنا شمالا وربما تراه أمي من هناك جنوبا وربما حيث هي في السماء، وربما نسيتني.

أنا جدتي لأبي، جدتي» لالة أندلس»، الشجاعة، الوفية، المضيئة، القاسية ،الحنون، الأنيقة، المرهبة، القوية، المفجعة، المفاجئة، الواضحة ،الصريحة، المتحدية ،الغامضة،العاشقة، المعشوقة.. هي مثلي الأعلى، سندي وأيقونتي .. سأكونها .. سأكون جدتي..لأكن أنا هي وهي أنا « أندلس».

- يا غربتي قولي لأهلي ..

قليبي مالو فزعان ..

فالنوم جاتو محلة..

في جاه الكريم العدنان

اللي شاف غزالي يقوللي

4

النشوة

وضعت المرآة الصغيرة في حقيبة اليد، وعدلت من رافعي حمالة صدري المنفلتين. كنت قد هدأت قليلا وبدأت أتفحص ما حولي.

مكتب ينطلي على الفخامة بعض الشيء ولكنه ظل مهجورا على ما يبدو، منذ زمن غير قريب لم يدخله أحد. لاشك أنه كان مكتب رجل، فمن علاماته الباقية يمكن إدراك ذلك. من رائحة الخشب المحايدة، من الصورة الوحيدة المركونة المنسية في زاوية خلف زجاج مغبر.. مكتب رجل ، لا عطر فيه و لا زهر فيه ، رائحته فقط تملآ الجو. أغلب الظن أنه كان رجلا أسمر البشرة داكنها. لماذا ؟ لأن هواء الغرفة يفضحه.

- ماذا أفعل هنا ؟ من أو ما هذا الذي ساق بي إلى هنا؟

ما زال طنين الضجيج يصفر في أذني، شيء يشبه تلامس الكؤوس، وجوه وأصوات المباركين الحاضرين لحفل تنصيبي :

- مبروك المنصب عقبال ما هو أعلى..يا أندلس

- الله يبارك ويزيد يا «أندلس».

- والله يا أندلس تستاهلي أكثر.

يتقاطع الكلام في أفواههم بحشرجة التهام الحلويات، والإبقاء على ابتسامات المجاملة. يقفز وجه «نور الدين الوصلي» أحد الكتاب المعروفين بتملقهم للزعيم وحجابه، وهو يشد على يدي ليهنئني بالتنصيب بحرارة مبالغ فيها، يهز كفي بقوة شديدة، فيهتز صدري .أشعر بالحرج فجأة، صدري يتضخم، ينتفخ. تنفر حلمتاي، أتلمس أزرار قميصي، تضيق في أماكنها فتعوج أعناقها وتكاد تطير من الضغط عليها. أشعر بالحنق وأرى على وجهه شبه ابتسامة، شبه تكشيرة. لا أحب الوجوه المتفقهة في رسم تكشيرات النفاق.

ماذا أفعل هنا في هذا المكتب ؟ وهذه الأختام الرسمية وما خلفها؟ كيف انسقت إلى هنا؟ ما علاقتي بكل هذا؟ لم أطلب شيئا ولا رغبة لي في المناصب أنا فنانة. يسر لي قلبي بأن الفنان مهما كان صادقا لا يستطيع أن يجمل أو يعدل من الخراب المحيط بقومه مهما اجتهد إلا عبر فنه. فنانون عبروا التاريخ ففضحوا القهر والظلم والاستبداد، وفتحوا أعين الناس على عورات قاهريهم، وعانوا هم أنفسهم من الاستبداد.

- مبروك عليك « يا أندلس».. مبروك عليك المنصب، إنها أوامر الزعيم صاحب الغلالة.

الآن فهمت أن محضر تنصيبي وقع قبل شهرين من إخباري، و أن الإجراءات الإدارية كلها استكملت وشارف الأمر على أن ينشر في الجريدة الرسمية. كل هذا أثناء سفري خارج البلاد، أعلمت منذ أسبوعين بطلب عاجل بضرورة الالتحاق بقصر الزعامة.

....

- تهاني الحارة

اقتربت مني .. إنها الياقوت، زميلة الدراسة منذ الطفولة. لم تكن قريبة مني يوما، جمعتنا الأقدار وفرقتنا السلوكات والأفكار. علمت أنها أصبحت تعتلي كرسيا مهما في الدولة وتحمل الصفارة !!

- تهاني .. قالتها بالفرنسية وهي تدفع باب المكتب تنظر إلي نظرات غريبة لم أستطع تحديد كنهها، وربما لن أستطيع أبدا أن أحدد حقيقة إحساسها نحوي. هل تكرهني الياقوت أم هي تحتفظ لي بمشاعر الود ؟

لمحت في عينيها بريق دمعة ثم ما لبثت أن غطت وجهها و انفجرت في بكاء مخنوق، كأنها شعرت بحرج وأنا أشاهدها تبكي، كأنما ترفض حالة بكائها. مسحت دموعها ومن خلال الكحل المنتشر فوق خديها نطقت بأول جملة :

- أنت محظوظة ..محظوظة محظوظة كثيرا يا أندلس .. إنه يريدك أنت . !!

- من ؟ من تقصدين ؟؟

- «مولاي الزعيم صاحب الغلالة» !!

كانت مفاجأتي مدوخة، مالي ومال صاحب الغلالة.. في حقيقة الأمر لم تكن رغبتي عارمة لمعرفة من .. ربما عن خوف، أو كأن الأمر لا يعنيني. طرحت السؤال دون انتظار . كنت أريد فقط أن أعرف وبأسرع وقت ممكن لماذا أنا هنا، وأريد أن أفك رموز هذا الغموض الذي يحيط بحياتي الأيام هذه. غرزت عينيها المحمرتين المتقدتين في وجهي بنظرة محتقنة و بشعور غامض ثم واصلت وكأنها تحدث نفسها :

- إنه يفضل أندلس وليس أنا ولا واحدة أخرى..

آه .. من أين لي مثل شفاهك ،وعينيك ، وذكائك ،ومن أين لنا نحن الإناث اللواتي نملأ القصر بمثل فطنتك ،وإتقانك لفنك، ولوحاتك؟ .. أنت لا تعلمين أنه ينام تحت واحدة من لوحاتك.. هو مفتون بك ويخشى أن ينفضح سره.؟ !!

- من ..؟ صاحب الغلالة ؟

- نعم .. نعم سيدنا ومولانا صاحب الغلالة !!. قالت من بين دموعها وهي تكز على أسنانها.

لم أتمالك نفسي فانفجرت ضحكا .. ضحكات مجنونة .. مفاجئة مثل عاصفة لم تكن في الحسبان، هزت منابت الرئتين مني تدفقت على إثرها حرارة في كامل جسمي تصاعدت حتى وجنتي ثم إلى أذني ارتفع صدري وضاق، فانفك الرافعان وكان الألم يتمركز في الحلمتين، خبأت

صدري وأنا أطوي ذراعي حوله، كانت دمعتان على وجهي .. هل أنا أضحك فعلا أم ماذا؟؟.

كدت أنفجر في وجهها لكنني تماسكت بصعوبة شديدة، وبقيت على هدوء لست أدري كيف استطعته . خشيت أن ينفذ صبري فلا أعرف البقية ،و لا ماذا ،ولا من، ولا كيف وصلت إلى مواجهة الموقف هذا .. لابد من التريث.

- لابد أن في الأمر سوء فهم ما؟؟ !!قلت لها.

تمخطت «الياقوت» ومسحت أنفها بمنديلها، ثم استدارت نحو الجهة الأخرى، وأخرجت علبة صغيرة، فكت منها قرصين بلعتهما بسرعة، وكأنها لا تريد أن أتعرف على ماهية الأقراص تلك التي تتعاطاها..

بدأت تحك رأسها بطريقة هستيرية، فيتطاير شعرها الأسود القصير المجعد، وتظهر قشور بيضاء في الهواء تحت أشعة ضوء يتخلل ستائر النافذة .. مرت لحظات بكماء،كأنها غابت فجأة أثناءها في عالم أجهله .. علق بصرها بحافة الطاولة الزجاجية التي تفصل بيننا ، سحبت نفسا عميقا من سيجارتها ثم استرسلت في الكلام. في حديث طويل ومؤلم، وكأنها تفك ضمادات ملفوفة حول جرح غائر.

- الدنيا حظوظ.. !!

-.....

..أنا التي قدمت الكثير لذلك الأخرق، والآن أشم رائحة التنكر والجفاء. وكما يقول المثل (الحمار ما يشم القرفة).

سأكون صريحة معك يا أندلس، السبب هو أنه بعد كل عملية جنسية فاشلة يذكرني دوما بصوته المتحشرج :

- أخرجتك من البوهيمية يا»الياقوت» وأنت لا تساوين حتى بصلة خامجة .. نصبتك حاجبة ورئيسة على الطواويس، وسلمتك الكرسي والصفارة، بينما أنت لا تستطيعين حتى أن تكوني قادرة على انتصاب هذه اللحمة في وسطي !

يمد يده بعد ذلك ويسل عضوه من ثقب سرواله، وكأنه فأر قد أخرجه للتو من قبضة مصيدة، رأسه مدلى وعنقه مهروسة .

- ولماذا تقبلين بهذا المنصب إذا كان شرطه بهذه الأهمية ؟

قلت لها وفي صوتي نبرة مستنكرة.لم أقصد إيذاءها.

- إنه وباء السلطة يا أندلس .. .. السلطة وباء ابتليت به وتعودت عليه. لا تنسي أنني في رتبة الحاجبة الأولى لدى صاحب الغلالة، منصب يسيل له لعاب الكثيرين، وهذا ليس بالشيء الهين، ثم إنه سلمني الكرسي والصفارة. ..

- وصفارتك لم يعد لها مفعول السحر إذن؟؟

قبل خمسة أعوام كان حيوان « الزعيم صاحب الغلالة» لا يزال يستجيب، (قالت كلمة الحيوان وهي تنصب الأصبع الوسطى حيث يكون)، أفركه مرات أو أمضغه أو أضربه بفرقعات من أصابعي أو أحكه مرات أخرى فيستجيب. بصعوبة ولكنه كان يستجيب على كل حال !! يستيقظ،

ويعلو، ويقف وينتصب. لا أخفيك كم كنت أفرح بذلك. كنت أعتبره انتصارا سياسيا كاسحا لي، وضمانا لبقائي في السلطة، وامتداد يدي أطول في دهاليزها.

.. بعد كل انتصاب، ينتصب حظي في السلطة أكثر. يفرح بي صاحب الغلالة ويسعد، فيزيدني قوة وسلطة ونفوذا ، ويسلمني مفاتيح البلاد الكثيرة الواحد تلو الأخر، وصناديقها المليئة بالمال والذهب والفضة. إن رضيت أقرب من أريد حيث أريد، وإن غضبت أبعد وأقيل من أريد متى أريد. يمنحني الضوء الأحمر والأبيض والأخضر .. ولكنه الآن تغير، وعجز عضوه شيئا فشيئا، وأضحى يتوارى وراء شحم أعلى فخذيه، فلا أخرجه إلا بعد لأي، كمن يخرج حلزونا جافا من قوقعته.. لايريد أن يعترف بعجزه، يريد أن يبرهن دائما أنه القيم، والقائم، والقوام الذي يستحق أن يبايع أوينتخب عليه بالنسبة العربية المعروفة، أي أكثر من 99 في المائة من أصوات الشعب المفتون به، وبقدراته الخارقة في كل شيء ، بدءا من السرير وانتهاء بالسرير. كما يريد أن يبين للغاشية أنه المخلص الجبار، وأنه المرغوب والمرهوب ذو المهابة. وأنه الحصان الوحيد في إسطبل البغال.

..ما ذنبي أنا إن لم يعد عضوه يستجيب؟؟ لماذا يضع اللائمة كل اللائمة علي، ولا يعترف أنه تضاءل وتضاءل معه حيوانه.؟؟

في السنة الماضية خلال إحدى الليالي الحمراء ، لم أوفق مرة أخرى في إيصاله لذروة نشوته ، قال لي دون أن ينظر إلي : لم تعودي تصلحين لشيء ياالياقوت .. أخيرك بين

شيئين فإما أن تدبري حالك ، أو تأتين لي بقحبة أخرى. . يبدو أنك لم تعودي تصلحين وأنا أضيع وقتي معك .

صحيح أنني سقت له نساء مثل قطيع النعاج في سرية تامة، كنت أنتقيهن بعناية بصحبة صديقة قديمة لي تعمل في القصر. نساء جميلات. صغيرات وكبيرات، متزوجات ومخطوبات، وعازبات. لا يرضى أبدا ولا يقبل الأرامل لأنه يتطير منهن. لا أخفيك رعبه من الموت. صاحب الغلالة مستعد لكل شيء كي لا يموت. بل كي يعيش طويلا ، أطول مدة ممكنة.

.. الحقيقة والله شاهد علي ،كنت أختارهن بضميروطني عال. بكل دقة وعناية .. أشرف عليهن ، أوجههن في كل كبيرة وصغيرة قبل أن يلجن إلى قصوره عجينة طرية . أشترط عليهن حتى الطريقة التي بها يباشرنه .. ولكنني لا ألبث تجنني وساوسي التي تلوك أعصابي كلما تواجد على انفراد مع إحداهن. على الرغم من أنني لا أمل من تكرار تخويفهن منه وأوصيهن ألا يكثرن الكلام والثرثرة معه. أسيرهن مثل دمى من القش. أتحكم في حركاتهن منذ الخطوة الأولى. يسرن حسب وصاياي وتخطيطي. ومع ذلك أقلق.

تصل الواحدة منهن إلى مجلسه الذي أصف لها أدق تفاصيله. عليها أن تضع ثيابها على الأريكة الحمراء الموجودة على يمين السرير، ثم تفتح الخزانة الفاخرة ، وتخرج منها منديلا حريريا واحدا من بين مئات المناديل الحريرية الثمينة ، ثم تلفه حيثما شاءت سواء حول وسطها، أو رأسها، أو

ذراعها، أو فخذها، أو أي جزء تختاره من جسدها، قبل أن تقترب منه. وغير ذلك من التوجيهات المهمة.

خفت بعد ذلك أن تكون من بينهن، بالصدفة، واحدة تأخذ بتلابيب مخه فتستأثر باهتمامه، وتسيطر على إحساسه، فيبعدني عن مركز القرار ثم يخطط للتخلص مني، كما سبق وأن خططنا معا من قبل، أنا وهو، في جو حميمي دافئ ،خططا جهنمية للتخلص من أشخاص كثيرين، كانوا يتبوءون في ما سبق مكانة هامة في السلطة و المجتمع . تخلصنا منهم ونسيهم الناس مع الوقت. لست أدري لماذا كان ومازال يخشى الشباب منهم، ويخاف من قوة تأثيرهم على المجتمع. أزحناهم بطرق جد متقنة، وبهدوء تام بح.. بح. !! (قالت ذلك وهي تنفض يديها)

أخشى أن يتخلص مني أنا الأخرى فلا أعود الحاجبة الأولى في الدولة ،فتضيع مني الصفارة ويضيع مني الكرسي.

- هل تثقين بي ؟ ثم لماذا تقصين علي كل هذا ؟ ألا تخافين مني؟؟

- أعتقد أنني أعرفك بما يكفي لأدرك أنك لست تماما كالأخريات.. أعرفك يا أندلس منذ أن كنا في المدرسة، كان يميزك شيء ما، لا يوصف، شيء يقربك من الملائكة. وتعرفين أنني من فصيلة الشياطين، لا يمكن أن تخدعيني ولا حتى أن تخدعي غيري. ثم إنك فنانة ويقال إن للفنانين ميزانا آخر للوجود.

– عليك أن تطمئني إذن، لا رغبة لي في الكرسي أو الصفارة ، وجودي هنا مؤقت ..أعدك. وأعتقد أن في الأمر سوء تفاهم ،أو خطأ ما وقع فيه صاحب الغلالة. لست المعنية بالتأكيد.. وعليك أن تصدقي ما أقوله لك .. هل تصدقينني حقا ؟

– صعب علي يا أندلس رغم ثقتي في ما تقولينه، وما تقولينه يتماشى وطبيعة شخصيتك ،إلا أنني أعرف أنك لن تكوني مخيرة ربما أجبرك صاحب الغلالة بنفسه على ذلك .ولكنني سأحاول. (أطرقت الياقوت قليلا ثم أضافت) : –..تعرفين؟ يا أندلس مهمة الكرسي والصفارة علمتني ألا أثق في أحد أبدا .. الجميع مشاريع أعداء. أعداء مفترضون يجب الحذر منهم ..تعلمت أن أبدأ بالهجوم خير من أن أضطر إلى الدفاع... مررت بتجربة مماثلة مع امرأة أخرى شديدة و لم يحدث أن شككت أو خفت، وارتعبت من امرأة مثلما وقع لي مع «طاووس»، هي امرأة جميلة وذات سحر وثقافة وحضور، بدأت تتقرب من صاحب الغلالة فأثارت شكوكي. جن جنوني وخفت أن يقع الزعيم في غرامها، ثم يرمي بي خارج السلطة، ويسلبني الكرسي والصفارة، ويمنحهما للقادمة الجديدة طاووس هذه، اضطررت أن أ تخلص منها.

– كيف تخلصت منها ..هل قتلتها؟؟

– لا فقط دبرت لها مكيدة صغيرة أدخلتها السجن ،وهي الآن تقبع فيه ..ارتحت منها ..لم تعد خطرا علي .(شعرت بتهديد مبطن تبديه الياقوت لي)

ثم ليس هذا موضوعنا يا أندلس .. إنها حكاية قديمة حدثت قبل أن تتهاوى قدراته. أعرف بأن قلبه مريض، ويقول أطباؤه الخاصون إن أباه مات بسكتة قلبية ، وهو في نفس عمره الآن. يقلقني مرضه، إذا ما انتهى فإن بنهايته نهايتي، و نهاية مجدي وعزي وجبروتي. الغريب أن الشعور الذي ينتابني شعور متناقض ومتضارب. فمن جهة أنا أكرهه، وأكره عضوه المغشي عليه المستقر الملتصق بين فخذيه كفأر أخرج لتوه من مصيدة، فلا هو حي يرزق و لا هو ميت يقبر. ومن جهة أخرى أخاف عليه ولا أريد أن يصيبه مكروه، وأرغب له العمر الطويل. متأكدة أنا.. إذا ما أصابه سوء، سيسلبني من سيأتي بعده الصفارة والكرسي، سيستغنون عني. أفراد حاشيته لا يحبونني. طبيعي فأنا الحاجبة الأولى. الكل يدرك أنه وحده من يحميني، و يصر على بقائي في السلطة.دون أن يدركوا السر في ذلك ..وجودي في السلطة مرهون بوجوده فيها.

- ألا تخافي أن ينال منك ؟

- هل تحسبين أنني سهلة الابتلاع؟ لا لا .. أنا الياقوت أنا ..أنا نخريه أنا ..سبق لي أن مررت له تهديدا ذات مرة بطريقتي الخاصة التي يفهمها جيدا . إن هو سلبني سلطة الصفارة والكرسي فسأفضحه في البلاد ،وأخبر الناس عن حيوانه المغشي عليه وسط فخذيه ، شبيه فأر خارج للتو من مصيدة ، ملوي الرأس مهروس الرقبة . وأخبرهم بأشياء أخرى أخطر وأفدح.. إنه يعرف طبائعي أتحسبينني مثلك ..هاها أنا ابنة شوارع ، وأماكن موبوءة ، ويعرف أنني لا أستحيي ، وإني قادرة على أن أجوب

الشوارع وأصرخ بأعلى صوتي بكل ما أملك من قصبات هوائية ما يدور في رأسي. ثم أفضحه في القنوات الإعلامية العربية والأجنبية، أنا امرأة لا تزعجني الفضائح بل بالعكس تسليني كثيرا، أنا امرأة فضائح، أنا الفضيحة، ولا شيء في وجودي أتسلى به غير لعبة السلطة.

شوفي يا أندلس ..الناس لا يعرفون شيئا عما يدور بين فكي الرحى السياسية ..لاشيء غير العنب .. ولا .. مقدار ذرة من الحقيقة

- الناس لم يعد يهمهم ما يجري في قصوركم .

هذا أحسن ويخدم استراتيجية الزعيم صاحب الغلالة. إنه يتدارى، يعزل نفسه خلف جدار الصمت، لا يريد أن يكتشف الشعب تغيره فطالما انبهروا بقامته الممتدة، ووقفته، وصوته وقبضته التي يلوح بها في الهواء، يعدهم بجمهورية أفلاطون تحت تصفيقاتهم. لا يريد أن يعرفوا أن إمكاناته الصوتية والقيادية تراجعت كثيرا..لا أحد يستطيع الدخول عليه..على كل هي حيلة جهنمية.

- كل من يطول وجوده في السلطة لابد وأن يصبح دكتاتورا . حتما .

- نعم دكتاتوري ونص وثلاثة أرباع ..السلطة لذيذة (قالتها بالفرنسية)

.. نجتهد للإبقاء على الصورة ذاتها .من صالحنا الإبقاء على الصورة القديمة في أذهان الناس .. ثم يا أختي

مالنا ومال الناس ؟؟ إنهم منشغلون في يومياتهم بخبزهم ومائهم وأزماتهم.

– ألا تخشون من غضب الشارع وتفجره، سيستفيق ذات يوم .. الأزمات اشتدت.

في الحقيقة نتحكم في الوضع جيدا ولا نخاف . حيلنا الشيطانية أعطت ثمارها. أنت لا شك تقرئين الصحف اليومية وتتابعين الإعلام، وتلاحظين أن الإعلام يطبل ويزمر لسياستنا الرشيدة. أغدقنا على الصحف الخاصة قبل العامة الأموال الطائلة فهي تقوم بواجب التمويه.. الحمد لله الثروات موجودة فجميع من رشوناهم ليس هناك منهم من رفض اليد الممدودة بالرشوة . جميع الذين مددنا لهم الكيس المليء لم يرفضوا بل لم يتمنعوا حتى .. مرتشون، جل هؤلاء الذين يسودون أوراق الجرائد يوميا بالكلام المعسول عن الفضائل والأخلاق الثورية، والحلال والحرام، وعن المبادئ، جلهم حين نادينا عليهم جاؤوا مسرعين، ولبوا قبل غيرهم . وبعد أن ذاقوا من المال الحرام (تضحك بهستيريا) واعتادوا عليه بل أدمنوه ..لم نعد نسمع بمثل خزعبلاتهم تلك «ضربوا رواحهم في الصح» ودخلوا في « الصف « مثل باقي المرتشين الآخرين، ثم إن من يحاول فتح فمه لنقد السلطة ندبر له مضيقة اقتصادية أو أمنية أو سياسية أو مالية فإما أن نضربه على يده بيد من حديد فنفقره ونعزله ونجرده من كل مصداقية داخل المجتمع ، وصدقيني لدينا طرق جهنمية نقدر من خلالها أن نسود ونسيء سمعة اكبر عالم في البلد ، وإما أن نضيق عليه من كل الجهات أو نناديه ونقربه و نغدق عليه. فإذا به

يسبح بحمدنا بكل اللغات صباح مساء. ليس أكبر من غواية المال في بلد فقير يا أندلس أنت أيضا تعرفين المثل الشعبي القائل :

«جوع كلبك يتبعك.»

- ممن تخافون إذن ؟ إذا كانت الأمور محكمة كما ذكرت فما عليكم إلا أن تناموا على آذانكم. مع العلم أن أحوال الناس ليست مبهجة في البلد. الحالة متعجبش.

- قد أوافقك أن الحالة ماتعجبش، يا أندلس، ولكن لتعلمي أن لا شيء سيحدث. أتعرفين لماذا لا يثور شعب بينما هو يتضور من الجوع ويعرق من البهدلة ؟ ببساطة لأن السياسة في البلدان المتخلفة قوتها و دعامتها الدهاء والخبث والكذب والبهتان والفخاخ والمقالب، كل الوسائل والوسائط والطرق الملتوية الصالحة للبقاء في الحكم حلال. وهي جزء لا يتجزأ من العمل السياسي. الأغبياء من المسئولين هم فقط من يصلون إلى السلطة ويظلون على طوباويتهم، يفكرون في تسيير أمور الدولة والناس بإخلاص وبضمير . هاذا ما يمشيش عندنا .تعلمت أن لا ضمير في السياسة لا قلب ولا عقل .. السياسة خبث ودهاء وحيل وفخاخ.

- أنت واثقة على ما يبدو أن الضمير يموت بمجرد أن يدحرج إلى سدة الحكم ..

- الضمير؟؟ يتبخر حالما تحك الإلية جلد أريكة السلطة..لا مكان إلا للدهاء، الحرية المطلقة في التحايل على السقوط. الضمير لجام، قيد ثقيل.

- سيظل لمن يدافع عن الضمير وجود مفترض يا الياقوت. !! قهقهت الياقوت تقلصت عضلات وجهها كانت تبدو على شفة من الانهيار العصبي :

- لا تحلمي .. على كل أنت دائما كنت حالمة وستظلين وأنا لا أثق في الحالمين .

- الحلم صنو الحياة . يا الياقوت

- الضمير ما يوكلش الخبز .. الجوع والخوف يهددان الضمير بالاغتيال.

- ليست نظرية نهائية.

- أتعلمين ياعزيزتي أندلس أن كل العناصر المشوشة على راحتنا وهدوئنا باسم الدين تارة، وباسم الشيوعية واقتسام الثروات وصراع الطبقات والكلام المسمم الفارغ تارة أخرى، مسحنا وجودهم . اشترينا ذممهم بسهولة من أموال النفط الصاعد سعره والحمد لله .معظم هؤلاء اليوم يملكون فيلات وسيارات فخمة، وأرصدة معتبرة في البنوك العالمية صاروا ملوكا صغارا ملوك طوائف جدد إن شئت .. (تقهقه).. لم يعد لهم علاقة مع الطبقات الجائعة من الغوغاء، انفصلوا عنها، لم يعد هناك من يحمل الناس على العصيان والثورة، أصبحوا معزولين رغم الغلاء وغياب العدل وصعوبة العيش. الشباب ينتحر بدل أن يثور أو يحتج في الشوارع، لم يعد له من يؤطره ، ويهندس غضبه واحتجاجه، لو لم نشتر مؤطريهم من أحزاب اليسار واليمين لشوشوا علينا وربما لقاموا بثورة..نحن لا نلعب ..

- لكن العالم يتفرج على ما يحدث من كوارث في البلد. ألا يؤذيكم تفشي ظاهرة الحرقة مثلا ربما أخذت أشكالا أخطر، أغلب شباب البلد لا أمل لهم إلا في الهرب من أوضاعهم السقيمة ،يختارون الموت قاطعين البحر هروبا نحو أوروبا .بينما لا تخفى على أحد ثروات البلد المتراكمة.. أموال البلد في ازدياد .. ومصائبه في ازدياد. !

- الخطأ خطِؤهم، من قال لهم بأن أوروبا ستستقبلهم في الأحضان

- أليس من العيب أن يكون لبلد مثل بلدنا كل الخيرات الطبيعية ويغرق في البحرالآلاف من شبابه هربا نحو بلدان أخرى.ثم طال صمتكم حيال الظاهرة ؟؟

- شوفي يا أندلس ..بدون تنظير من فضلك .. ماذا نفعل لهم ؟ إنهم ينتحرون ، يهربون فيغرقون في البحر .

- ألا يؤذيكم ذلك ..مادام هناك المال ، فحل مشاكلهم ليس بالأمر المستحيل ؟؟

- بحر عليهم .. ! لا يهمني .. ! نحن نمارس السياسة ولسنا جماعة خيرية !!. المهم أن الإستراتيجية التي اتبعناها جهنمية وناجعة. أهم مكسب لدينا هو الإعلام، سلطان السلاطين نتحكم فيه .إن خيوطه بين أيدينا، سيجرم أعمالهم وغيرهم ويبرؤنا منهم ومن دمهم. لا أحد يتكلم عنا بسوء على الرغم مما تقولينه .. انظري كل شيء على ما يرام وصاحب الغلالة راض جدا ومرتاح..المال موجود والحمد لله و«من لحيتو بخرلو..» كما يقول المثل، تخلصنا من وجع الرأس فصلنا المشاغبين نهائيا عن الشعب فككنا

نقاباتهم بمنتهى اللباقة وفتتنا أحزابهم. أية نقابة وأية أحزاب. وجع الرأس.

هكذا أحسن.. النقابة تترك للسلطة أناقة كتابة محضر الجلسات و الاجتماعات. وأحزاب المعارضة، بين قوسين، تتبنى برنامج السلطة وتعارض نفسها داخل المعارضة إذا أرادت أن تعارض .. سرك عمار وبرك.. لا أحزاب ولا هم يحزنون.. كل شيء يباع كل شيء يشترى...اسأليني ..أنا أخبرك

- اخترت طريقا يلائمك. أنت تليق بك هذه المناصب يا الياقوت أما أنا فلا . !

الحمد لله أنني لست مثلك طوباوية وحالمة، لم أكن اعرف شيئا، تعلمت كل «خرايب «السلطة وأنا داخل دواليبها .. تعلمت الحجامة في روس اليتامى (تقهقه).أه لو تعلمين أعرف أشياء كثيرة. أنا أراكم من فوق ..من أعلى .. وكلما ازددت علوا كلما رأيتكم صغارا .

- أنتم أيضا في علياء قصوركم كلما ازددتم علوا وبعدا يتضاءل حجمكم في عيون الناس. يرونكم صغارا .. صغارا جدا.

- إنهم أغبياء وأغلبيتهم منافقون.

- بل قولي إنهم منصهرون في البحث عن الخبز اليومي لهم ولذويهم وسيأتي اليوم الذي يبلغ فيه السيل الزبى.

– ها ..ها ..ها سيكون ذلك بعد عمر طويل إن شاء الله ..بعد قهقهة هستيرية ممتدة أضافت وهي تحك رأسها بعصبية و تتنفس بصعوبة :

.. شوفي يا أندلس أؤكد لك أن لاشيء سيتحرك .. إني أملك الكثير من الأسرار ..أسرار الدولة، ومفاصل أسرار صاحب الغلالة الخاصة جدا . هذه قوتي، أشعر أحيانا أنه ندم حين قربني منه كل هذا الاقتراب، وأنه يخاف مني ومن سلاطة لساني . ها..ها ..أشعر أنه سلمني سلطة الكرسي والصفارة ليأتمن شري أنا أيضا .. من قبل كانت سلاطة لساني وتمردي يسليانه . عجبا له كيف تغيرت طبائعه .ما الذي غيره؟؟.. كنت في ما سبق أدخن وأكرع الكؤوس على مرأى من الجميع ولم يكن يمانع و لا يتحرج، وكان ذاك مصدر إعجابه بي.. كان يعجبه أن ألقي في الهواء كلاما فاحشا وأتسكع في الشوارع ، وأسهر في البارات وأظل حتى مطلع النهار . عرفت أن تلك قوتي الوحيدة عليه .. والآن تغير الوضع.. إلا أن عليه أن يخشى لساني .. لم تعد لي قوة أخرى غير سريره وأسراره تحت لساني.

اليوم قوتي الوحيدة وجبروتي في لساني.

– وإذا حلا له وقرر إبعادك ؟

– أعتقد أنه أدهى مني ، يعرف ما يجب من الأولويات وما لا يجب يدرك أن من الأفضل لنا جميعا في الفوق ألا يفرط في، لن يفرط في بسهولة أعتقد ذلك. ولكن أمر سريره يقلقني.. علي أن أجد حلا. أن أفتش عن طرق جديدة في الأنترنيت أو في مجلات البورنو كي تساعدني

في محنتي أمام عجزي على إنعاش فأره الواقع في المصيدة برأسه المائل وعنقه المهروسة .

صاحب الغلالة يرفض أن ينزل عن سدة الحكم وسدة اللحم.

لا يريد أن يعترف لنفسه بأنه تعب وأنه مهدد بسكتة قلبية مثل أبيه .إنه يكذب على نفسه، ومازال يتأسف على ماضيه في السرير كما في الدبلوماسية ،وهو الذي تزوج خمس نساء من قارات مختلفة، واحدة منهن ملكة جمال العالم من أصل لاتيني ظلت معه تسعة أشهر ثم انتحرت في ظروف غامضة، إنه لا يتوقف عن تخيل مئات النساء اللواتي مررن في سريره عندما كان شابا .. تبدل في كل شيء إلا في علاقته بالنساء . وكما يقال (العريف ما ينسى هز اكتافو) .يظن أنه مازال فحلا .. ويخدع نفسه يدعي أنه قادر على مباشرة عشرات النساء دفعة واحدة. لذلك يضع كل العتب علي ..وكأنني أنا السبب في عجز حيوانه المرتخي .... المسكين.. يحكم بلدا كاملا بيد من حديد بينما عضوه من قديد. !!

كدت أغرق في الضحك لولا أنني رأيت أن أعصاب الياقوت بدأت تتهيج ،واستبد بها الغضب، فارتفعت نبرات صوتها الحادة. كانت تلوح بعصبية ظاهرة بكفيها في كل ا تجاه وكأنما تطرد ذبابا. هكذا كانت دائما منذ سنوات الدراسة .. لم نكن نعرف هل هي تحب الذكور الذين تريدهم أم تكرههم فتتعارك معهم :

- هل نسي حقيقته المرة. ؟ يستطيع أن يضع يده على رقاب الناس و الانتخابات والدستور و القوانين، وأن يضحك على الذقون، وأن يخطب، وأن يكذب، وأن يرهب وأن يرعب ..إلا على السرير، لا مكان للتزوير. !!!

اقتربت الياقوت من وجهي وكأنها هذه المرة ستسر إلي بأكبر أسراره وأخطرها :

- إسمعي.. في المرة الأخيرة لم أشعر بالشفقة نحوه كالعادة، بل بالغضب والاحتقار. حاولت أن أساعده على الانتصاب بكل أطرافي دون جدوى، وحين لم أفلح نظر إلي بغضب وقال وهو يصوب إبهامه تجاهي :

- منصب الكرسي والصفارة الذي منحتك إياه أكبر منك بكثير، بل إنك لا تستحقينه .. هناك ملايين غيرك من النساء يقبعن في بيوتهن مثل جداتهن ليست تنفعن شهاداتهن العالية .. أجمل منك وأذكى يحلمن بعشر ما أنت عليه..يبدو أنك لم تعودي تصلحين له. !!.

لم أتمالك يا أندلس. رأيتني أهوي من سبع سموات، بكيت بين يديه ، بكيت بكاء مرا .. كان ينظر إلي بعينين فارغتين بلا لون ولا ضوء ولا معنى ..مستلقيا على السرير عاريا وهو يمطط عضوه التناسلي حتى أعلى بطنه ، وكأنه يمسد رأس فأر خارج للتو من مصيدة مهروس الرقبة. غرز عينيه في وجهي المبلل بالدمع دون أدنى أحساس بالشفقة على حالي، ثم وهو لا يزال يمطط عنق عضوه ، وبصوت جاف أوضح لي بأنني إن أنا أردت أن أحافظ على الكرسي والصفارة فعلي أن آتي بك إليه.

- بي أنا ؟؟ ومن أين يعرفني أنا ؟؟ لم يحدث أن رأيته وجها لوجه.. !!

- ماذا أقول لك ؟ هذا كل ما في الأمر.. أنا نفسي تفاجأت .. عبر لي عن رغبته بصراحة .. تم اختياره. يريدك أنت « يا أندلس « أنت المحظوظة ،ويبدو أنه يعرف عنك أكثر مما تعرفينه عن نفسك.

أصابتني رجفة خوف، لم تلبث أن تلتها عاصفة من الضحك المتواصل.. سالت دموعي قبل أن أفطن إلى خطورة الموقف وجديته..

- أنت محظوظة.. محظوظة يا أندلس. في صوتها حشرجة أهي من حقد أو حسد أو كراهية؟.

- أنا ؟ عن أي حظ تتكلمين؟ .. أنت تهذين ..أنتم معشر الكراسي والصفارات مرضى ..لماذا أنا بالضبط .. أنت من تريدين الكرسي والصفارة أما أنا فلا.. وما دخلي في الموضوع ثم أنا لم ألتق «بالزعيم صاحب الغلالة» في حياتي .. هناك الكثيرات من يردن امتلاك الكرسي والصفارة كما قالها بنفسه لماذا أنا بالضبط؟ حرام عليكم اتركوني وشأني.

- كيف ؟ أهذا معقوووووول ؟ ألا تغريك سلطة الكرسي والصفارة ؟ ألا تريدين حتى أن تجربيها .؟؟ قالت وهي تزم شفتيها المحاطتين بالتجاعيد.

- إن أردت الصراحة لا ..لا. !!

- ولكن الأمر انقضى ولا رجعة فيه، صاحب الغلالة قال كلمته وأنا لا أرد له طلبا، وتنصيبك اليوم بداية رحلتك معنا ، وما دام قد وضع بين يدي الكرسي والصفارة. فلو طلب مني حليب الطير لأتيته به وسأضحي حتى بأمي وأختي إن اقتضى الأمر ..

كان التهديد واضحا في جملتها الأخيرة، مدعما بملامحها التي أصبحت تكتسي قسوة و وحشية بينتين. لم أستأنس لحديثها وشكواها. أعرف الياقوت منذ زمن.. لم تتغير .. مازالت لا تحسب للعواقب حسابا ، تقول الفكرة وضدها ..تحب الشيء وتكرهه، تضحك وتصرخ في الوقت نفسه، تلين وتقسو في الآن ذاته، لم تكن وحيدة تسكن جسدها ..ياقوتتان في ياقوت واحدة،الياقوت في ياقوتتين اثنتين ..هل بها شيزوفرينيا ؟.

لأول مرة شعرت بالخطر، خطر الاغتصاب أو الموت .. أشعر بثقل كبير في حمالتي ثديي، صدري يرتطم مثل بحر باغتته العاصفة، يرتفع، يتضخم.. أكثر فأكثر، حلمتاي تنفران مثل رصاصتين، ينفلت الرافع الأيمن عن كتفي أتصبب عرقا يضيق نفسي، أهرع نحو الباب وأمضي..

كانت البناية الرسمية العالية تتراجع خلفي .. كنت أتلفت وكأنني هاربة من وحوش ضارية تطاردني، أو ربما كلاب مسعورة تعض و تمزق بعضها بعضا، ولكنها تطاردني ، تهم بأخذ بتلابيب ثوبي و تضع عنقي بين كماشتين ،ثم تجلسني معصوبة العينين بين يدي صاحب الغلالة. وبينما

العرق يغسل تفاصيل وجهي إذا بصوت يشبه الأنين يناديني :

- أندلس ..أندلس ..يا أندلس. !!

كان يلتقط أنفاسه وهو يهرول نحوي .

-عبد النور سيدهم ؟ ! قلت وأنا أتفحص ملامحه.

- آه ما زلت جميلة يا أندلس . !

أضاف وهو يحرك يديه بمسرحة :

- جميلة جدا .. جدا. !!

قالها وهو يقبل أطراف أصابعه.

فجأة عبر شريط سريع بين عيني هجت طيور ذاكرتي، ومثل لمعان برق لمحت صفحات الرسائل التي كان يدسها عبد النور تحت طاولتي في القسم، بخط أنيق. معطرة ومطوية بعناية. رسائل غرامية رومانسية. كان يستعير تعابيرها الرائعة من مؤلفات جبران خليل جبران،من رسائله إلى مي زيادة. ولم يكن يتحرج من توقيعها باسمه هكذا :

« تأليف عاشقك حتى الفناء عبد النور سيدهم».

الحق يقال كانت رسائله طريفة وممتعة .. فقط أتساءل :متى كان يجد كل ذلك الوقت لكتابتها بخط يحرص على أن يكون منمقا، تميل فيه قبعة الكاف إلى اليمين وكأنها تنحني لي، بينما لا يفتأ القاف يبحلق في وجهي بعينين حزينتين، وتستلقي الحاء بينما الألف كله انتظار. ويجلس الباء مكسور الخاطر على حافة السطر.

عبد النور سيدهم يحب اللغات وخاصة درس الإنجليزية، كان أشطرنا وأقوانا فيها ولا يتوقف عن ترديد جمل حفظها عن ظهر قلب، يقول لنا :

- كم لذيذ أن تتكلم الإنجليزية الأمريكية، إنه يشبه مضغ العلكة.

ثم لا يمل عبد النور من التأكيد والترديد :

- أنا لست أكثر فهما من جبران خليل جبران الذي ألف أهم كتاب له عنوانه «النبي» باللغة لإنجليزية .

عبد النور شديد الذكاء والفطنة ومؤدب أيضا، لم يسبب أبدا إزعاج أو غضب الأساتذة بل يزيدهم يوما بعد يوم إعجابا به.

يوم واحد فريد ،ليس مثل باقي الأيام ،حدث العكس. يوم عراكه بالأيدي مع الياقوت عندما دخلنا كالعادة، ككل صباح، في صفين متوازيين إلى قاعة دروس الساعات الصباحية. ثم و نحن نستعد للجلوس، لم ينتبه أحد كيف سلت الياقوت بسرعة البرق وبخفة السارق المحترف أوراقا من محفظة عبد النور سيدهم، ثم صعدت مسرعة إلى السبورة خلف دون أن تأبه بدخول الأستاذ وشرعت تقرأ على مسامعنا بصوت مرتفع :

إلى مهجتي وحبيبة روحي أندلس :

يا أندلس يجلو النبوغ حلاها
ولها من كرامة ما تشاء
أتريدين في كتابك شعرا

هو سؤر بمهجتي أو دماء
ذاك فضل يتيح لاسمي فخرا
أحرزته من قبله أسماء
فاقبلي هذه القوافي أزجيها
وفيها تحية وثناء
ليس بدعا وأنت ما أنت إن
أطنب فيك الكتاب والشعراء
أدب رائع ونظم ونثر
كل لفظ يشع منه ضياء
ولسان طلق ولحظ يرى الغيب وجفن يغض منه الحياء
كيف لا يستبيهم ذلك الوجه
البديع الحلي وذاك الذكاء
ما معانيهم الحسان لدى
أدنى معانيك أيها الحسناء

تمطط الياقوت حروف المد بشكل مبالغ فيه وهي تقرأ الرسالة الموجهة من عبد النور سيدهم إلي، وتركز على الجمل الغزلية وتكررها . وجه عبد النور يزداد احتقانا من الغضب، وإذ حاول إيقافها وسحب أوراقه من بين يديها تمزقت ثم اشتبكا أمام الجميع في عراك ساخن. قررت الإدارة على إثره عقابا لهما، حرمانهما يومين من المدرسة. مع إنذار بالطرد.

عرف الجميع فيما بعد أثناء غيابهما أن الياقوت تعشق سيدهم بجنون، وأنها انتقمت منه شر انتقام، ذلك ما أسرت لنا به صديقتها سعدية وهي تعلق :

- يستاهل. !!

قلت و أنا أسحب نفسي من الماضي الذي بلعني دفعة واحدة :

- عبد النور كيف حالك ؟أما زلت تحب جبران خليل جبران؟ قلت.

-لا أبدا.

- أيه؟ لماذا ؟

- أنا عاتب عليه، وعلى المنفلوطي، وعلى أفلاطون، وعلى كتب السيرة ،وعلى فيروز ، وعلى الأخطل الصغير وعلى ماركس، وعلى غاندي ..

صدقتهم، وصدقت أقوالهم، وكتاباتهم، وأفكارهم، ولكنني وجدت نفسي ممرغا في الرماد. كان علي ألا أصدق مراميهم.

بكل جوارحي أنصت إلى عبد النور وأنا أفتش عن نفسي، كما يحدث لك إذ تفتش عن نفسك حين تلتقي بصاحب قديم لك، يذكرك بك، وبأنك ما عدت أنت، وأنك تماثلت للعادة، وأنك ـ لحد الساعة ـ لم تنبت لك أجنحة، وأنك عدلت عن فكرة الطيران.

- صدقيني أندلس، أنا سعيد جدا لرؤيتك !!

تماما كما يحدث لك، فرح حين رآني «عبد النور سيدهم»، صديقي القديم من أيام مقاعد الدراسة.. سعد حين رآني عند أقدام البناية الرسمية الوحش، الغافية تحت الرايات نهارا والنجوم ليلا، والمطلة على البحر، والمهيأة للرقص في أية لحظة. هرع نحوي وآلمني أن حافلته لنقل العمال قد أقلعت. كان السكون تاما.. بالكاد عرفته، فلم يظل منه سوى البريق المتّقد في أعماق عينيه.

- عبد النور سيدهم؟! أنا سعيدة أيضا. عانقته مرة أخرى وكأنني ألجأ إلى حديقة الماضي الوديع الجميل الهادئ.

كان عبد النور مشروع كاتب كبير، كان حالما مجنونا، يدوخ الدنيا ويشغل الناس. أذكر صباح دخوله إلى القسم متأخرا ببضع دقائق ،ولمفاجأتنا ضحك جميع من في القاعة حتى الأستاذ تمالك نفسه من قهقهة جنونية.

في حديث مقتضب بيننا البارحة في الساحة أثناء الاستراحة أفضيت لعبد النور بإعجابي الكبير بهندام أبي وتسريحة شعره وطريقته البارعة في اللباس. اندهشت حين رأيته يدخل القسم، في اليوم التالي، مرتديا بذلة رسمية وقميصا أبيضا، وربطة عنق، وحذاء أسودا براقا، وقد سرح شعره إلى الخلف.

- هل تريد مكاني ؟ سأله الأستاذ ملاطفا.

لا.. مجرد تدرب بسيط على الحرية الشخصية يا سيدي. !!

من أين كان يأتي عبد النور بتلك التعابير؟؟

اقترب مني عبد النور، توسعت الابتسامة منه حتى بدت أسنانه الناقصة والسوداء.

ـ ..و ما الذي تفعله هنا يا عبد النور؟!

ـ أنا موظف هنا.. «شيف دو بيرو» (رئيس مكتب).

ـ منذ متى؟

ـ أوه.. منذ أعوام . وأنت ؟

– أ.. أ..أ.. عينت حديثا، اليوم استلمت المنصب .لكن..

– آه أنت هي إذن القادمة الجديدة ؟ قالها بنبرة أثارت اشمئزازي. الجميع يتحدث عن الوافدة الجديدة.

لم يتوقف عبد النور عن الكلام وكأنه يواصل حديثا غير مكتمل منذ سنين عديدة، بحرارة واهتمام لم يطفآ ولم يخمدا.

أسر لي عبد النور بما لم أكن اعرفه عن البناية الوحش، أخبرني أن مكتبه في الطابق الثاني الحلزوني، من البناية الوحش، الغافية تحت الرايات نهارا والنجوم ليلا. في مكان مرتفع قليلا من مكتبه، يضع كيس مسحوق الصابون وزجاجات ماء، ومفتاحا ملفوفا بعناية متناهية في قطعة قطن.

كل صباح، وعلى الساعة الثامنة بالضبط، يصل عبد النور إلى مكتبه المتواضع جدا، في البناية الوحش ، الغافية تحت الأعلام نهارا والنجوم ليلا.. يغلق الباب بإحكام ويجلس

خلف مكتبه، يخلط بعناية مسحوق الصابون بالماء . جيدا، إلى أن تصبح الرغوة سخية، حينها يتناول مفتاحه، يغطس رأس المفتاح في السائل، ثم ينفخ في فتحته.. إنها صناعة الفقاعات•. ينفخ يمينا ويسارا فوقا وتحت. تتصاعد الكريات براقة شفافة ملونة، منوعة الأحجام.. تتطاير، تتراقص في أرجاء المكتب، ثم يتسرب بعضها خارج المجال المغلق عبر النافذة ويطير.. يتابعها عبد النور بنظرات متفحصة، قلقة ممتعضة أحيانا ومزهوة أخرى.

بمرارة حدثني عبد النور عن مديره المباشر.

-«فقاعاته أكبر قليلا من فقاعاتي».

ثم زم شفتيه ألما.

بجدية، أخبرني عبد النور عن رئيس المصلحة التي يتبع إليها إداريا، ظل ساعة كاملة يصف فقاعاته.. فهي أجمل فقاعات رؤساء المصالح جميعا.

رثيت لحال عبد النور، وانكمش قلبي حين راح بصوت مبحوح، مليء بالحشرجة والألم، يصف فقاعات السيد الأمين العام ؛ ثم وكأنه يعزي نفسه قال :

ـ طبعا.. مكتبه أوسع للتدرب، وله مفتاح أكبر برأس مثلثة عجيبة، يمكن أن تصنع عشر فقاعات دفعة واحدة وبأحجام مختلفة.

ـ وماذا عن الديوان؟! سألته.

ـ لا علم لي بفقاعات الديوان.. أولا فزوجتي لا تريد أن أقترب منه فقد حذرتني يوما بقولها :

ـ يبدو أنك الذكر الوحيد في تلك البناية المنحوسة!!

فهمت من يومها أنه عليّ أن ألزم حدودي الجغرافية..

- لم تخبرني أنك تزوجت يا عبد النور وهل لك أولاد؟

- بنت واحدة وحيدة سميتها أندلس.

.....

ليس هذا فحسب-أضاف عبد النور دون أن يرف له جفن- بل إن «شيف دو بيرو» لا يحق له الصعود إلى طابق الديوان. ولكن أصدقك أن لدينا معلومات عن فقاعاته من وسائل الإعلام المرئية خاصة ،والمسموعة والمكتوبة..

يبدو أنها فقاعات فوق ما يتصور الخيال.

البناية الوحش ، تغفو تحت الرايات نهارا والنجوم ليلا، أضحت محج الباعة، يصولون ويجولون.. بائعو الماء وبائعو المفاتيح وبائعو الصابون وبائعو حبوب منع الحمل، وتجدر الإشارة أن الشامبوان بدأ ينافس الصابون. يقال والله أعلم إن فقاعاته من نوع أجود، فهي تحدث صوتا حين تصطدم بالأشياء.

كان عبد النور يتحدث، وفي عينيه بريق وجدية بالغان،بدأت أشك في إمكانية إصابة مخه بسوء.

ـ إنني، وبالاشتراك مع زميل لي «شيف دو بيرو» مثلي، يحمل شهادة في الاقتصاد الدولي، نريد أن ننشئ نظرية جديدة في تدويل الفقاعات الوطنية. من الحتمية التاريخية إذن تشجيع الإنتاج المحلي وجعله سدا منيعا في وجه

العولمة. أخبرك أن هذا ما هو إلا جزء من إستراتيجية شاملة تفيد بلادنا اقتصاديا وسياحيا وثقافيا ودفاعيا.

سكت عبد النور قليلا، ثم أردف دون أن يرف له جفن. ولأننا عمليون يا أندلس فنظريتنا الجادة هذه بدأت تجد سبيلها إلى التطبيق، وتجد مريدين بحيث أن مسابقة كبرى ستقام في البناية الوحش، الغافية تحت الرايات نهارا والنجوم ليلا، لترشيح وتكريم صاحب أكبر وأجمل وأضخم فقاعة•

آه لو يكون النجاح من نصيبي.. تنهد عبد النور!

ـ والديوان هل يدخل المسابقة؟! سألت عبد النور الذي بدا عليه الغضب. كنت أريد أن أجره للحديث عن محيط الياقوت وبلاط صاحب الغلالة .لكنه استمر موضحا :

ـ لو أن الأمر كذلك فسيكون الكيل بمكيالين، يعرف الجميع أن للديوان تجربة أقدم من خلال المخطط الرباعي الأول في إنتاج الفقاعات، ثم إن إمكانياتهم المادية والمعنوية أضخم، صابونهم ليس صابوننا، وشامبوانهم ليس شامبواننا، وحجم مفاتيحهم أكبر من حجم مفاتيحنا، ثم إن لفقاعاتهم مقاييس عالمية، والمدهش أنها حين تفرقع فهي تفرقع بلغات أجنبية.

ـ ومتى ستقام المبارزة إن شاء الله؟!

قلت كمن لا ينتظر جوابا.

لوح عبد النور بيديه في الهواء، جادا وواثقا :

– أنظري يا أندلس إلى البناية الوحش، الغافية تحت الرايات نهارا والنجوم ليلا.. انظري، إنها تسبح في كون

من الفقاعات.. فقاعات تغطي الجدران. تتسرب من النوافذ والشقوق وممرات التهوية.. فقاعات تعوم المكاتب.. سحابات من فقاعات تفيض بسخاء.. تنزلق فوق الأعلام وعلى السواري وعلى الحشائش والأشجار والرؤوس.. ملايين الفقاعات تدور تتدحرج على السلالم والطرقات وتغزو أبعد أحياء المدينة.. فقاعات.. فقاعات.. الله الله.

كل يتدرب في السر حتى لا يدرك الآخرون مدى تقدمه في عملية صناعة الفقاعات، ولا يعرفون نوعية صابونه ، وشكل مفتاحه، ومدى نباهته ،وخفته ، وليونته، وشطارته، وقوة رئتيه على النفخ وخطف الأبصار بفقاعاته.

الجميع يتلصّص على الجميع يا أندلس.. يفتح أحدهم باب المكتب ، هكذا فجأة، ليفاجئ ويبصر حجم الفقاعات المتسربة من المكتب المجاور. والكل يتجسس على مكتب السيد الأمين العام للبناية.. الجميع يصوب نظره واهتمامه نحو نوافذه العريضة وفقاعاته المدهشة•

الحق يقال إن فقاعاته مخيفة !.. أردف عبد النور بمرارة .. ليس في الأمر عدل يا أندلس، الدول التي تحترم نفسها تمتلك نظاما متكاملا للسوق يتطلب اشتراطات، وواجبات وحدودا، ونظما داخلية. ليس في الأمر لعب.. ليس فوضى.

تصبب جبين عبد النور عرقا، وقد أطرق مفكرا حزينا•

- آه لو أنجح يا أندلس !

- ماذا؟! قلت له.

نظر إليّ مشدوها، كمن يرى مخلوقا نزل لتوه من كوكب مجهول.

- أنت لا تعرفين.. أنت لا تدركين.. فقط ادعي معي الله ليساعدني، وأن يجعل فقاعاتي أكبر وأبهى فقاعات البناية الوحش، الغافية تحت الأعلام نهارا والنجوم ليلا.. وان أكون المرشح الوحيد عند حسن ظن لجنة التحكيم، فأدخل المسابقة الكبرى للفقاعات ، لجائزة صاحب الغلالة.

جائزة الزعيم صاحب الغلالة ؟

- نعم يا أندلس جائزة الزعيم صاحب الغلالة، لصاحب أكبر فقاعة في البلد.

- إن شاء الله ستنجح.. ستنجح إن شاء الله!! قلت مواسية•

نظر إليّ.. تفحصني.

- ارفعي كفيك.. أنت طيبة السريرة والله تعالى يستجيب لمن هم مثلك.. فإذا هو لم يستمع إليك فلمن إذن!! ارفعي كفيك إلى السماء أرجوك ورددي معي.

رفعت كفي إلى السماء بكامل الخشوع.. لاحظت أن الليل بدأ يطيح، وأن ملايين الفقاعات تتلاعب في الفضاء، وبمنتهى الصدق رددت وراء صوته المرتجف :

- يا رب العالمين!

- يا رب العالمين!

- اجعل فقاعات عبد النور سيدهم ولد عيشة وولد عبد القادر..

- اجعل فقاعات عبد النور سيدهم ولد عيشة وولد عبد القادر. أنجح فقاعات البناية الوحش، الغافية تحت الأعلام نهارا والنجوم ليلا.

أنجح فقاعات البناية الوحش، الغافية تحت الأعلام نهارا والنجوم ليلا.

ويتحصل على جائزة الزعيم صاحب الغلالة للفقاعات..

ويتحصل على جائزة الزعيم صاحب الغلالة.

- آمين يا رب العالمين..

- آمين يا رب العالمين.

قبلني عبد النور على جبيني ثم ذهب بخطى مسرعة قلقة، يلتفت بين الحينة والأخرى وهو يلوح بيده. كان سعيدا على ما يبدو . حين كاد يختفي في الظلمة تذكرت أنه كان علي أن أدعوه- على الأقل - لأوصله بسيارتي إلى المدينة. ولكن شعورا ضاغطا أصابني ..صدري تضخم فجأة. انسل الرافع الأيسر من على كتفي وتصاعدت الحرارة إلى وجهي. كنت أعاني من الرصاصتين الملتهبتين العازمتين على الخروج من رأس الثديين . دخلت سيارتي وأغمضت عيني الدامعتين.

5

ابنة أبيها

هل أنا مصدر شؤم للذين يحبونني .. هل عبد النور يجري له ما يجري لأنه كان مولعا بي .. ؟؟ سامحني يا عبد النور كان مولعا بأندلسه ولا يزال . يعطي اسمي لابنته الوحيدة ؟؟. فهل كانت جدتي لالة أندلس صائبة في ما كانت تعيرني به.

- وجه الشر.. ما كنتيش مربحة عليهم لا على أمك ولا على آباك..خصك الميزان .. خصك الميزان

أعرف هذه الجملة ،أحفظها عن ظهر قلب منذ سنواتي الخمس الأولى.

أنا المشئومة ولادتي.. كان علي ألا آتي.. كان علي أن أختار ظروف مجيئي. كم شعرت بالذنب قبل أن أعرف ألا أحد يختار توقيت وظروف مجيئه. كلنا سواسية في الخروج من الأرحام غصبا عنا، لا نعرف كيف سيستقبلنا الناس عند بوابة الدنيا.

- بصح خصك الميزان ..الميزان

لالة أندلس جدتي لا رقيب على لسانها ،وعندما تقرر أن تقول لك شيئا ،لا يهمها إلا أن تسمعك إياه في وضوح، وأن يصل مفعول جملها بكل ا ثقاله الرمزية إلى أعمق ما فيك من ظلمة أو ضوء. إلى أبعد مساحة ميكروسكوبية في خلاياك ، ثم عندما تكلمك فهي تغرز عينيها في وجهك لترى سريان صوتها في عروقك، وتسهر على معرفة مدى توفقها في ذلك، ومدى تأثير كلامها فيك. وكأنها لا تريد لك أن تستمع إليها بأذنيك فقط، بل بعينيك أيضا وشفتيك، وبالهواء الذي يعبر إليك منك. وبعين الخبيرة تصمت، أو تعيد الكرة بجملة أخرى جديدة، أكثر تأدية للرسالة، رسالة إيلامك أو إيقاظك أو تنبيهك أو إسعادك، أو لكي تخبرك عما لا تدرك وجوده فيك.

لا يبدو الكلام بالنسبة للالة أندلس مجرد إحداث ذبذبات صوتية تخرج من بين الأسنان بعد مرور عسير عبر مسالك مظلمة لتتبخر في النهاية في الهواء دون جدوى أو هدف. للكلام هدف بل بالنسبة للالة أندلس للكلام هدف واضح.

لا تحب لالة أندلس الثرثرة، وحين تزورها ضيفاتها من قريباتها و صديقات شبابها، يجتمعن حول القهوة أو الشاي، لا تلبث الأصوات أن ترتفع بالحكايات والكلام المتقاطع الطويل المنغمس في لذة الذكريات. تركن جدتي لالة أندلس إلى جوار الصينية النحاسية والكؤوس البلورية صامتة ، رافعة أحد حواجبها، تتأمل كأسها في كفها ، تقلبه في هدوء وكأنها تتفحص نقوشه الذهبية الغريبة

النافرة على جوانبه، أو كأنما هي غائبة تماما، جسدها فقط الجالس معهن، ولكن فكرها بعيد بعيد.

ولأن لالة أندلس قليلة الكلام موزونته.. فهكذا هي ..

وإن تكن لالة أندلس قليلة الكلام إلا أن ثرثرة النسوة الأخريات لا تبدو مزعجة لها أبدا ، ولا تثير اشمئزازها أو غضبها ، أو حتى استغرابها أو ضيقها . تجلس حتى نهاية القعدة صامتة إلا من بعض عبارات الترحيب.

الأمر معي مختلف. لالة أندلس عينها الساهرة القاسية علي، تنهرني إذا ما أطلت في الكلام أو رددت الجملة مرتين، أو تلعثمت - خصك الميزان.. الميزان.

تعلمت ألا أكرر الجملة ..مرة واحدة تكفي.

كبرت وأنا أكره التكرار في كل شيء ،وأنبذ الروتين. لا أحب التكرار إلا في طلوع الشمس، وبهاء غروبها، و أغاني الطرب الأصيل، أما ما عدا ذلك فأعاديه (يكفي من القلادة ما يحيط بالعنق).

عينها الموجعة المربكة علي. أنا مشؤومة الولادة ..أنا أندلس ،أنا حاملة اسمها النادر، أنا ابنة ابنها، لا تريد أن يكون اسمها النادر لمن لا تستحقه.

مرة في سياق حديثها سمعتها تقول بصوتها الهادئ وابتسامة ساخرة لضيفتها :

- الأسماء تشبه أصحابها، ما كان يمكنني أن أتحمل اسما آخر غير أندلس. !!

ارتجفت للفكرة ..ارتبكت وأنا أختلس السمع. أندلس ؟ وأنا ؟.. كيف لي أنا الأخرى أن أتحمل اسمي ؟

كلما تكلمت، أو ضحكت بصوت مرتفع، أو كنت أستعد للخروج ترمي نظرة جانبية علي، ومن غير أن تنظر إلي، يملؤني صوتها الهادئ الصاخب :

– واش هاذا التبهديل ..ألم تجدي فستانا أليق من هذا ؟خصك الميزان .. الميزان !!

أعود أدراجي دون تعليق، وأفهم للتو أن فستاني قصير أكثر من اللازم، أو طويل أكثر من اللازم، أو غير لائق، أو أن لونه لا يتماشى مع الحذاء، أو يتنافى مع المناسبة، أو أن هناك حتما خطأ ما. حتما عينها الحاذقة على صواب.

هل يزعج جدتي أن تخطئ الأخريات؟ لا يبدو ذلك.. أبدا ..و لا يهمها أن يظهرن بما ليس يليق. لكن يزعجها إن أنا جانبت الصواب أو ظهرت بما ليس يليق بحفيدة لالة أندلس.

ما رأيتها يوما توجه لوما، أو تنتقد واحدة من معارفها، في الحضور أو الغياب، أو تعلق سلبا على صديقة لي أو فتاة من العائلة .. أما أنا فلا.. يختلف الأمر : أنا أندلس، أنا صورتها، أنا ابنة ابنها، علي إذن كي أستحق هذه المكانة أن أليق بها، أن أجتهد لأتجاوز كل العقبات الصغيرة والكبيرة، أن أتعلم كيف أكون أهلا لحفيدة لالة أندلس.

أنا حفيدتها في جلوسي، ووقوفي، في كلامي وصمتي، في طريقة أكلي وشرابي، واغتسالي، ولباسي، وابتسامي

وضحكي. حفيدتها في البيت وفي الشارع. حفيدتها في اعتنائي بهندامي ونظافتي، وتصفيف شعري ومشيتي. حفيدتها في إتقان تقديم القهوة وطريقة تناول الفنجان وطريقة شربه. حفيدتها في مضغ الطعام بهدوء وأناقة وبلعه دون صوت غير محبب، حفيدتها عند الضحك بلا صخب، والكلام القليل ذي الجمل المفيدة القصيرة. حفيدتها في أن تختلف طريقة كلامي حين أحدث سيدة أو أحدث رجلا. حفيدتها حين أحل ضيفة فأترك طاقتي الإيجابية في الأشياء حولي لن ينساها المكان ولا سكان المكان، حفيدتها حين أودع ضيوفي عند الباب فيبدو لهم أنهم خرجوا من الجنة. حفيدتها في وحدتي وفي أنسي. حفيدتها في تطويع وحش الوقت وتنظيم النهار والليل. حفيدتها حين أغلق الباب دوني ..

كم كان الأمر شاقا، كم كان مهولا ومفزعا لي في البداية، ولكن حين كبرت - والحق يقال - وبعد لأي، لم يعد شاقا أن أكون حفيدة لالة أندلس...لكنني لم أنس يوما أن أخاف على الذين يحبونني مني..لم أنس أبدا البحث عن الميزان . وكلما اقتربت من تعديل الميزان تتلاطم أمواج صدري ينقطع رافعا الحمالتين وتسود فوضاي في .وتوسع الرصاصتان ممرهما لتخرجا من راسي ثديي المتعاظمين فجأة.

6

رن التلفون بينما كنت أفتح باب شقتي، كنت متعبة. كانت الساعة تقارب الثالثة صباحا.

- ألو.. سعدية ؟؟ أنا «الياقوت « سأصعد إليك الآن أريد أن أحدثك في أمر هام.

- الياقوت من ؟. الياقوت الياقوت .. !!

- وي. أنا الياقوت صاحبتك نتاع زمان.. أنا جاية استناييني..

ما أن فتحت الباب حتى دلفت الياقوت إلى الداخل، وبحركة من يدها طلبت من مرافقها أن يظل في الخارج. كان يلبس معطفا بلون أسود غامق. يبدو أنه يخبئ تحته سلاحا لحمايتها.

- بونسوار ما شار سعدية..

ما بها؟ كم تغيرت ..كم تبدلت ملامحها أضحت قاسية ... كأنها على سرعة من أمره.

مضى زمن لم تتصل بي. منذ أن قربها الزعيم صاحب الغلالة منه. أصبحت حاجبته الأولى. بعد أن سلمها الكرسي والصفارة إنها مهمة جدا الآن.

ما الذي فكرها بي اليوم ؟ لا بد أن في الأمر شيئا غريبا أو غاية في الخطورة ! !

أنا والياقوت كنا دائما قريبتين جدا من بعضنا، مثل أختين أو أكثر. في حي واحد كبرنا، ذكريات كثيرة مشتركة تجمع حياتينا، درسنا معا مختلف أطوار ومراحل الدراسة. لم تكن لنا صديقة ثالثة أبدا. إلا أن ثالثتنا كانت الحاضرة الغائبة دائما بيننا. فتاة تدعى أندلس تختلف عنا في كل شيء. نشترك في كراهيتها والغيرة منها. كم بكت الياقوت على صدري من سطوة أندلس، ومن تفوقها عليها في جاذبيتها وأنوثتها وذكائها. أخفقت الياقوت في منافستها فأضمرت لها عظيم الحقد والكراهية. كنت سندها.. أليست صديقتي وابنة حومتي ؟ لم تستطع أن تنافسها فكانت تكرهها .كنا نقضي الساعات في النميمة عنها. أندلس المتعجرفة كنا نشعر أنها تنظر إلينا باحتقار وبدورنا نحقد عليها وفي أغلب أوقاتنا تكون مصدر نقدنا ،وتذمرنا، وغضبنا، وسخريتنا المرة، ومقالبنا، وغيرتنا المبطنة بشتى الألوان.

الحق يقال كنا نغار من أندلس غيرة عمياء .. ربما لأنها مختلفة عنا، ربما لأنها تفكر مثل الكبار أو مثل الكتب الكثيرة التي كانت مغرمة بقراءتها ..أو لست أدري.

مراهقتنا أنا والياقوت ؟ كم من الجنون، حشد من المغامرات والحكايات ،تربطنا الواحدة بالأخرى رباطا وثيقا. حتى أننا فقدنا عذريتنا في اليوم نفسه .. نعم في اليوم نفسه والمكان نفسه.. في يوم مشهود. يوم حار تتوقد

في الطبيعة منه، ومنه تعتمل في دواخلنا النار. نزلنا فيه إلى الشاطئ بالأوتوستوب رفقة أجنبين أحدهما أسود من ساحل العاج يدعى» توما» والثاني «جيلبير» من فرنسا أشقر بعيون خضر. جاءا ضيفين على البلد للمشاركة في مؤتمر أوروبي- افريقي حول استحدام الطاقة المتجددة .اليافطات المعلنة على المؤتمر تزين أغلب شوارع المدينة الساحلية. أكبر اللافتات حجما وأعظمها خطا، علقت على واجهة البلدية بجانب صورة عملاقة للزعيم السابق صاحب الغلالة. كانت المدارس والمتوسطات والثانويات ستغلق أبوابها قريبا .

كان اليوم قائظا. يرتفع البخار من كل شيء تقع عليه الشمس الحارقة. على أهبة عطلة الصيف كنا .. جاءتنا الفكرة الجهنمية التي خططنا لها منذ مدة، ليس مزاحا .كان وعدا قطعناه على نفسينا أن نفقد عذريتنا في اليوم نفسه، والساعة نفسها، والمكان نفسه.

كنا نتضاحك ونحن نتمشى على جسر خلف ثانويتنا المسمى جبهة البحر. تحت الثياب نلبس مايوهات، مستعدتين للتوجه نحو البحر في أية لحظة. نعاين أجمل السيارات لاصطياد أجملها وأفخمها.عند أقدامنا توقفت سيارة فاخرة ، يبدو من علامتها أنها تابعة للدولة. ركبنا ضاحكتين وبمجرد أن صعدنا المقعدين الخلفيين للسيارة وشوشت الياقوت في أذني :

- سعدية ؟

- وي !!!!

- أنت ليك لكحل الفحل، وأنا لي لشقر لخضر . !

- أوكي الياقوت، مكاش مشكل . !

هكذا هي الياقوت تريد أن تقرر دائما ..تقرر حتى مع من ستفقدين عذريتك.

وصلنا الشاطئ الجميل الشهير» مهبط الشمس»، المحروس بعناية الرب والعبد.

يظهر «مهبط الشمس» للعين جليا ، هادئا ،مليئا بالمريدين والعشاق من المصطافين المصطافين أي المختارين من الطبقة المخملية ، . دلفت السيارة عبر ممر أنيق لسكنات فخمة . توقفنا عند مدخل فيلا باذخة ترمي بأطرافها في البحر مباشرة، نزلنا فاختفت السيارة في رمشة عين . فتح جيلبير الباب بمفتاح أخرجه من جيبه ، لون عينيه يلمع مثل انصباب البحر في السماء أو السماء في البحر، بينما كان توما الأسود كالثعلب، يحاول أن يلملم لعابه حول شفتيه الغليظتين ، و تتلهف عيناه لتعرية ما استطاع من جسمينا البضين.

جلسنا في صالون مرتب بعناية فائقة. لم يتوان جيلبير في إحضار الكؤوس وملئها ،و لم يتوقف توما على الابتسام والنظر إلينا بعينين ناصع بياضهما، يدوران في محجريهما بخفة مذهلة. سلم لكل منا كأسه. لم أكن قد شربت خمرا من قبل، أما الياقوت فأعرف أن لها ثقافة لا باس بها في أسماء وأنواع وأذواق بعض الخمور.طالما تبجحت بمعرفتها تلك بين أقراننا.

- ويسكي مع قلاس؟؟

وقف جيلبير رافعا كأسه بكل أريحية ، وقفنا أربعتنا . لم ينطق توما بأية كلمة كان مشغولا في التفرس في وجهينا وجسمينا.

- في صحة التعاون الأوروبي -الإفريقي من أجل مد جسور البترول تحت الأرض والطاقة المتجددة وجسور المحبة فوقهما !!

- في صحة بلداننا !! رددنا جميعنا ونقرنا كؤوسنا . إلا أن توما أصر بصوت مرتفع وعينين براقتين :

- في صحة سعدية والياقوت !!

أخذنا أمكنتنا في المقاعد الجلدية الفاخرة .

- من له سيجارة ؟ قالت الياقوت

قفز توما بين يديها مادا لها سيجارة كولواز . ركع تحت ركبتيها قليلا ثم أشعل لها السيجارة وهو ينظر إليها بشهية . عيناه تدوران،.بياضهما حده الحد بين سوادهما وسواد الجلد منه. لمحته يمص شفتيه المبلولتين، ثم وكأنني سمعت اصطكاكا في أسنانه ناصعة البياض.

- ماذا تريدان أن تصبحا في المستقبل ؟ سأل جيلبير وهو ينظر إلي.

- أريد أن أصير مهندسة، أحب الرياضيات نقاطي جيدة فيها.

- سي بيان سعدية. وأنت ؟ موجها السؤال إلى الياقوت.

- سأعمل طبيبة ربما، وسأنخرط في إحدى الجمعيات النسائية من أجل الدفاع عن حقوق المرأة.

- جيد. جيد. تغي بيان.. تغي بيان !!

- أي ساعة تريدان العودة ؟ قال جيلبير

لم تترك الياقوت فرصة لآي تخمين :

- ليس هناك أي مشكل سنقضي الليلة هنا. دبرنا أمرنا، كنا سنبيت عند إحدى صديقاتنا، لكننا غيرنا وجهتنا. سنبيت عندكم هنا في «مهبط الشمس» . !!

لم يبد الاطمئنان على جيلبير ، ولكن وجه توما انشرح فتحركت عضلاته المتينة وتوسعت ابتسامته أكثر ..نهض مرحا وسخن أكلا كثيرا وشهيا ..

كان حديثنا متقطعا وغريبا .

- سعدية ..هل تؤمنين بالجنة والنار ؟؟ سألني جيلبير

- لم أعرف كيف أجيبه ،اكتفيت بالإشارة، فهززت رأسي برد غامض ، محايد ، منافق بين نعم ولا ..

- بلدكم جنة.. جنة حامية !!. أضاف وكأنه لم يكن ينتظر جوابا مني على سؤاله.

لم أدرك ما كان يرمي إليه، تظاهرت بالفهم وابتسمت. يبدو أن إنصاتي شجع جيلبير على الكلام :

- أنا مثلا أفضل جهنم ..جنتي هي جهنمكم.. وجنتكم هي جهنمي !!

ثم ضحك. كانت أسنانه جميلة مصفوفة .ضحك ثانية فلمعت عيناه الخضر حتى بدتا شفافتين، كأن خلفهما مصباحين صغيرين مشتعلين ثم أضاف :

- أمي من النرويج، عشت سنوات هناك قبل أن ألتحق بأبي في جنوب فرنسا على البحر الأبيض المتوسط. البرد قارس في النرويج لا أحب البرد. البرد معاناة حقيقية. البرد مأساة إنسانية. بالنسبة لي ،البرد القارس جهنم والحرارة جنة.. توما مثلكم جهنمه جهنمكم، وجنته جنتكم. لذلك نعتمد عليه في تزويدنا بالبترول الذي يزيد من سخونة أعصابهم هناك. ضحك جيلبير مرة أخرى ثم أضاف :

.. أما أنا فأريد أن تكون جنتي ساخنة حارة، وإلا سأضطر للقيام بما سيغضب الله ليرميني في جهنمكم الحامية وسأكون سعيدا. !!

وحين ضحكنا جميعنا أضاف جيلبير :

- أتعرفون أن نظام الاتحاد السوفياتي في ما مضى، تفطن إلى «جهنم الصقيع» فكان يرمي فيها كل الخاطئين، الخطائين المغضوب عليهم. يسفرون في قطارات لا تتعب، تحرث الثلوج في طريقها اللامتناهي، تتغلغل بهؤلاء المغضوب عليهم داخل عوالم كوكب من الثلج، لآلاف الكيلومترات نحو سيبيريا. سيبيريا البرد والصقيع القاتلان. سيبيريا جهنم الباردة. أنا لا أحب جهنم جبابرة روسيا الباردة، أفضل جهنم الرب الساخنة. هي جنتي !

- أما أنا ..أنا هنا في الجنة.. !! نطق توما وغمز لجيلبير، بينما كانت أسنانه تلمعان مثل أعالي جبال سيبيريا.

عند منتصف الليل كانت عشرات الزجاجات الفارغة، والسجائر المطفأة ،وبقايا الأكل في الصحون يملأ الطاولة الممتدة . لم يظل في العيون غير القليل من النور.

تبين لي أن الياقوت لم يعد يظهر من جسدها الشيء الكثير ،كان توما قد غطاها مثل لحاف سميك وكبير غامق اللون . كدت أقهقه وأنا أميز جلداهما .. يتداخل الأبيض في الأسود، على الرغم من سمرة بشرة الياقوت ، إلا أنها بدت فاتحة البياض في التحامها بجسد توما شديد السواد. ظهرت شفتاه الغليظتان وقد التهمت نصف وجه الياقوت، فلم يعد يظهر منها سوى جزء من جبهتها وخصلتان من شعرها الأسود القصير. فتحت عيني بجهد، كنت فعلا أتخيله يلتهمها، هل هو الشراب ؟ خفت عليها حقا. اقتربت منها، وحاولت أن أمد لها يدي، أو أساعدها على النهوض إلا أنها حدجتني بنظرة من تحته وقالت :

- لكحل لفحل لي ولشقر لخضر ليك. ..صافا !!

تراجعت من دهشتي، كنت قد نسيت المسألة نهائيا. أصابني الذهول فجأة.

هل لاحظ جلبير خوفي على الياقوت ؟ هل هاله ما هالني ؟ فخاطب توما بهدوء وهو يشير إلى أحد الأبواب :

- توما ..إذهبا إلى الغرفة. . من فضلك !!

حمل توما الياقوت، ذراعاها تتشابكان حول عنقه الضخم، تضحك بهستيريا وتحرك رأسها وساقيها في كل

اتجاه .. غابا عن أعيننا. شعرت بشيء من الخوف يتسلل إلى نفسي.

جلس جيلبير إلى جانبي بصمت. أشعل سيجارة ثم ابتسم لي . شعرت بقليل من الاطمئنان أراحني . نهض بأناقة و أدار (أسطوانة 33 دورة) لشارل أزنفور ثم دعاني مبتسما، مادا أطراف أصابع يده اليمنى :

– سعدية .. عزيزتي .. هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟ قالها وهو يشدد على السين ويبلع العين من اسمي.

فجأة نسيت الياقوت ، وأهل الياقوت جميعا. نسيت توما و ساحل العاج كله و الجغرافيا كلها و مضخات البترول ..أنا في» مهبط الشمس» .. أنا بين ذراعي جيلبير. !!

وكأنني في فيلم فرنسي.. كلاسيكي. رومانسي بامتياز.

متثاقلة قمت، وضعت يدي على كتفيه، بينما رست يداه حول خاصرتي. ..ارتجفتا قليلا.. تشابكت أيدينا ثم جسمانا، كان نهداي الصغيران يندفعان نحو صدره، لست أدري كيف تذكرت أندلس حينها : لو أن لي حجم صدرها الملوكي لكان جلبير قد ركع لتوه، أو مشى على قوائمه الأربع، فرت من بين شفتي لعنة :

– ابنة الكلب !!

– ماذا ؟ ماذا عزيزتي ؟ سألني جيلبير

لم أرد .ابتسم لي جيلبير بمنتهى الرقة. ربما ظن أنها كلمة غزل، ثم غيبني في جنان صدره.

ذراعا جيلبير حانيتان وعطوفتان، وثرثارتان. يتغلغل عطره الفرنسي الرجولي الفاخر في مساماتي. أسمع أنفاسه تشتد عند أذني فيتسلق جسدي شعب من النمل يملأ ثقوبه وتغضناته.

أستذكر ما درسناه في مادة الحضارة الفرنسية العجيبة. أشعر بفخر وأبهة وكأنني أراقص باريس كلها. ساقاي تتناغم خطواتها مع خطوات ساقي جيلبير الموسقة. منضبطة الإيقاع البطيء حينا، والمتسارع حينا آخر. حرارة جسده تتسرب إلى ركبتي مثل ساقيتين من الحليب الدافئ. رأسي يدور. شيء طبيعي، فأنا أعانق اللوفر، وبرج ايفيل، وحدائق الإليزيه. أرى مدام بوفاري تضع رأسها الصغير الجميل على السكة الحديدية . هل قتلها العشق أم قتلتها الخيانة ؟ أم أنها مختلفة مثلي وسابقة على عصرها ومجتمعها ،و من سوء حظها لم تذق طعم فواكه لاباستيل وما أحدثته من تغييروثورة في الأفكار و عقول الناس . يمر عبر ذهني ما قاله أستاذ الفرنسية المعجب بالسيدة «سيمون فاي « هي التي قلبت رحم العالم بنضالها وندائها بترخيص الإجهاض، وتحديد النسل، وتحرير المرأة من خوف إضافي آخر. تزحف أجواء «جيرمينال» تتسارع مثل شريط في مخيلتي. تنتصب ملامح شخصية كاترين الرمادية أمامي... تخيلتني بطلة فيلم غرامي فرنسي والقصة تدور خيوطها حولي ، تنهدت برفق :

- ما حولي الآن هما ذراعا جيلبير تطوقني. !!

جيلبير.. صامت ،شامخ ،هادئ وهو يراقصني. ينظر إلى وجهي بين اللحظة والأخرى. أرفع وجهي نحوه ، فألمح المصباحين الخافتين الناعسين خلف خضرة عينيه ، كفاه وحدهما الثرثارتان... تتحدثان إلي بصوت خفيض، ترتعشان في هدوء ملغوم مثل أغصان شجرة عظيمة تستشعر عاصفة ما. أشعر بطمأنينة عارمة تجتاحني،كأن الوجود كله ملكي ،أنا من تدير عجلته ، في خطوات : يمينا يمينا خلفا، يسارا يسارا أماما.. الأرض تدور لي وحدي، لا مخلوقات عليها. لا إنس ولا جن، ولا بينهما. ولا جنة ولا نار ولا بينهما. كأن الأرض فارغة من أثقالها، خفيفة منبسطة تحتنا، جيلبير وأنا. لا أحد عليها غيرنا. نرقص فوقها تحت عين رب رحيم يتسلى برؤيتنا، ينظر إلى ما صنعت يداه الجبارتان ،الرقيقتان، المبدعتان، ويبتسم. كنت أرقص بلا أقدام. كنت بلا جسم أحمله أو يحملني .كنت أرقص بلا وقت ولا ذاكرة. كنت، أو لم كنت ..

استيقظت في سريره في اليوم التالي، شعرت أنني أصبحت امرأة .

سبحنا كثيرا أنا والياقوت في شاطئ «مهبط الشمس «. ضحكنا ونحن نسترجع وسط الماء أحداث البارحة. لعبنا مع الأمواج حتى المساء، ودون أن نخبر جيلبير وتوما، ودون أن نودعهما، رجعنا إلى المدينة بالأتوستوب.

7

سعدية يا سعدية
غير أنت وبزاف عليا

مالذي ذكر الياقوت بي الآن ؟ مع من تريد أن نفقد عذريتنا المفقودة هذه المرة ؟ أما زالت تذكر شيئا مما عشناه من حكاياتنا الغريبة تلك أم هي تنكرت لها.

سعدية متهورة بامتياز، كنت أحب تهورها، يستهويني جنونه، يجد أصداءه داخلي .كنا نتشابه كثيرا.. أو قليلا.

لاأدري. منذ أيام المدرسة يحلو لها إثارة الشغب لا ترتاح إلا حين تسود الفوضى العارمة وتختلط الأشياء. لا تطيق العيش حين تصفو الأجواء، ويسود الهدوء. يروق لها « التخلاط « والجو العكر خاصة في حصص دروس اللغة العربية . تحقد كثيرا على أستاذ اللغة العربية، فتحول ساعاته إلى جحيم من غبار وعجاج، ومن الأصوات والحركات الغريبة ..المسكين أذقناه المرارة القصوى. ذنب هذا الأستاذ أنه لطيف غاية اللطف مع أندلس، يميزها باهتمامه. أندلس مختلفة عنا في سلوكها وقناعاتها . يبدو أنه كان معجبا بأخلاقها وهدوئها وثقافتها، وانضباطها. ثم إنها قوية في مادة اللغة العربية. على كل حال لم يكن وحده من يعجب

بأندلس، بل الجميع معجبون بأندلس ..أنا أيضا يحدث لي أن أرى في اختلافها عنا وتميزها، شيئا يعطيها جاذبية فريدة. لم أقل ذلك أبدا للياقوت لأنها لن تطيق سماعه بالتأكيد ،خاصة من صديقة عمرها. الياقوت تغار من أندلس إلى حدود الجنون، خاصة وأن كل زملائنا الذكور لم تكن عيون لهم، ولا آذان لهم إلا على أندلس، ولا كلام لهم إلا عنها.

تكره الياقوت أستاذ اللغة العربية ،و تمقت ساعة درس مادة اللغة العربية.ذات مرة، بينما هو يشرح الدرس ، تنتظر بلؤم حتى يستغرق في الشرح، فتقفز فجأة فوق الطاولة ثم ترقص وتصفق وهي تميل إلى الخلف بجدعها وتناديه بأعلى صوتها :

- تعال يا حسنين . ارقص معي يا حسنين . مالك يا حسنين ؟ الله ؟

وبينما هي تقلد حركات إحدى الممثلات في مسلسل مصري، يمتلئ القسم ضجيجا وضحكا وتصفيقا وسعالا.

أستاذ اللغة العربية شاب وسيم، يبدو مؤدبا وحييا ، اسمه حسنين فيومي .جاء من إحدى قرى مصر النائية إلى بلادنا لتدريس اللغة العربية في إطار سياسة التعريب المسطرة بعد خروج المستعمر..

كل مرة يقف المسكين مشدوها، مندهشا، دون حيلة ،وفي يده الطباشير. يأمر الياقوت بلطف تارة، وبعنف تارة أخرى أن تنزل من على الطاولة وتجلس مكانها . لكن

الياقوت تأبى إلا أن تظل فوق الطاولة رافعة فستانها ، تناديه باسمه، وتقوم بحركات مخجلة وتستعمل ألفاظا بذيئة ليس يفهمها، فلا تزيد التلاميذ إلا هيجانا، وضحكا، وصخبا.

في المرات الأولى، كان الأستاذ حسنين يهرع عند المديرة مدام زياني، وهي امرأة تبدي قسوة لا متناهية، ويخشاها الجميع. شديدة الطول والنحافة ذات أنف ممتد مثل منقار صقر يربض تحت نظارتها المستديرة الصغيرة .

يأتي الأستاذ حسنين فيومي بالسيدة زياني إلى القسم، فإذا القسم هادئ ساكن إلا من بعض أقلام والمساطر نسيت على الأرض. تتظاهر السيدة زياني بتفاجئها حين تجدنا هادئين منكبين على الدفاتر في صمت مطبق . ترفع خيطي حواجبها وتلتفت إلى الأستاذ تنظر إليه بدهشة مفتعلة من خلف نظارتها، ثم تلوي شفتيها إلى أعلى من تعجب . يحاول أستاذ فيومي أن يصور ويشرح ويفسر لها الحالة وما حدث، وما كانت تقوم به الياقوت منذ قليل، وأن الأمر مجرد حيلة ،كل ذلك بفصحى مخلوطة بلهجته المصرية. وبدورها ترد عليه المديرة مدام زياني بالفرنسية في ما يشبه حوار الطرشان، فلا المديرة تفهم العربية ولا الأستاذ فيومي يفهم الفرنسية، تقفل المديرة عائدة أدراجها وهي تحرك رأسها وتتمتم كلاما غير مفهوم، يبدو عليها الغضب وقد حدجت الأستاذ حسنين فيومي بنظرة تفوح احتقارا ليس له فقط، ولكن للغته العربية التي يدرسها، ولكل الحضارة التي ينتمي إليها. وما أن تغيب مادام زياني المديرة عن الصف ،حتى ننتفض من جديد وتصعد الياقوت مرة أخرى

فوق الطاولة، ترقص على إيقاع قبائلي هذه المرة، بينما الآخرون بعضهم يطبل على الطاولات بالمسطرات، ومنهم من يصفق.

أندلس وحدها صامتة. أندلس التي تحرق الغيرة الياقوت بسببها. تحاول الياقوت أن تشد الانتباه إليها بطرقها المشاغبة تلك. تجلس أندلس في الصف الأول مربعة ذراعيها تنظر إلينا من فوق. هل كان الأمر يسليها هي أيضا ؟ ..لست أدري !.

يتعالى الضجيج ويشتد، ويقف الأستاذ فيومي بلا حول ولا قوة وقد احمر وجهه، ويكاد الدمع وربما الدم يفر من محجريه.

في إحدى الحصص بينما الياقوت منهمكة في عراك بالأيدي مع تلميذ اتهمته بأنه سرق مسطرتها ،لم تلبث ان أخبرتني فيما بعد بالحقيقة :

- بغيت نبوسو ..بن الكلب دفل زعمة عاف مني .لو كانت أندلس لو كان بال تحتو. !!

أغضبها لما حاولت أن تقبله فبصق مشمئزا . وأفضت لي بحرقة أنها علمت بميله وافتتانه بأندلس، ولو كانت أندلس هي التي أرادت أن تقبله لبال في سرواله.

كانت معركة حامية الوطيس بحيث ارتمت فوقه بعنف. كانا يتضاربان، يتبادلان اللكمات ساقطين على الأرض، يتمرغان أحدهما فوق الآخر، بينما بقية التلاميذ يصرخون ويصفقون، البنات يشجعن الياقوت والأولاد يشجعون

معشوقها المتمنع ويجرون الطاولات والمقاعد لتوسيع حلبة العراك. ظل الأستاذ حسنين فيومي أمام السبورة ينظر إلى ما يقع فاغرا فاه، محتقن الوجه في حمرة داكنة ،يعلو ملامحه الغضب والعجب، يحمل الطبشور الأبيض في يد والممسحة في اليد الأخرى.. دار دورتين حول نفسه ثم رمى بكل قواه بالطبشور والممسحة إلى أبعد ركن في القاعة، وخرج تاركا القسم يغلي ضجيجا.. ولم نره منذ ذلك اليوم .

غيرة الياقوت من أندلس تفقدها توازنها، وتجعلها تبدع في كل ما يمكنه إثارة الشغب. فإذا كانت أندلس ملكة القسم كله حين يسود الهدوء والجد والتأمل، فالياقوت ملكة القسم كله حين يسود الشغب.

تريد الياقوت أن لا تترك لأندلس فرصة التميز عليها .طريقتها الوحيدة إلى ذلك لن تكون سوى إثارة الشغب، ولوي أعناق الجميع للنظر إليها، والإحساس بوجودها.

ماذا تريد مني الياقوت اليوم يا ترى ؟ ألم تنسني كل هذه السنوات الطويلة ؟

نسيتني بالتأكيد.. لم تدعني إلى حفلة قرانها، لا الأولى ولا الثانية. علمت أنها تزوجت مرتين خلال أربع سنوات . لم أرها حتى بعد طلاقها الأول والثاني. الخبر الوحيد الذي أعرفه أنها خضعت بعد مرض إلى استئصال جذري للرحم.

انقطعت لقاءاتنا إذ لم تعد تأتي إلى البار، ولا إلى «كباري النجمة»، حيث كنا نلتقي كل مساء، نسهر معا ثم

تعود إلى بيتها وهي تزحف زحفا.. انقطعت أخبارها إلى أن سمعنا في نشرة أخبار التلفزيون الرسمي عن مهمة الحاجبة الأولى التي أوكلت إليها من قبل الزعيم صاحب الغلالة. كان البار غاصا آنذاك، مليئا على آخره بأصدقائنا. رفعنا كأسها وكأس البار الذي ترعرعت فيه و تخرجت منه ،وباركنا لها في غيابها سلطة الصفارة والكرسي ...

ياله من شرف لنا، خرجت من بارنا مباشرة إلى وظيفتها السامية في قصور الزعيم صاحب الغلالة.

لأسفنا العميق لم تعد تعرفنا الياقوت بعد ذلك، قلبت صفحتنا.. حتى نحن شلتها لم نعد نتصل بها كي لا نحرجها، أو نسبب لها مشاكل .. الحقيقة أننا كدنا ننساها فلا نتحدث عنها إلا نادرا وبالصدفة. استقر في أذهاننا وقناعاتنا أنها للحفاظ على الكرسي والصفارة عليها أن تضرب صفحا عن ماضيها.. وعلينا.

و لكن ما الذي أتى بها إلي اليوم يا ترى ؟ ما الذي ذكرها بي ؟؟؟؟

8

أنا الياقوت واللي ما يبغينيش يموت

لم ألتق بسعدية منذ سنوات، وبالضبط منذ تلك اللحظة حين جاءتني سيدة قالت إنها مرسلة من طرف الزعيم صاحب الغلالة وأنه معجب بي ويريد أن يراني .لا أنسى ما أوصتني به السيدة قائلة لي :

- اسمعي يا الياقوت .. !!عندما تصعدين إلى مجلس الزعيم صاحب الغلالة اسحبي السلالم معك، واحذري من «بونسوان». !!

فهمت بعدها أن عدوي المتربص بي لن يكون سوى «بونسوان» منذ اللحظة تلك. أنا التي كنت أتعاطف معهن، وأمشي في مظاهرات الجمعيات النسائية، بدأت آخذ حذري منهن خشية أن يأخذن مكاني عند صاحب الغلالة. عدواتي هن النساء ..النساء خطر إبعادي من بلاط صاحب الغلالة.

لم أنس صديقة عمري سعدية. كنت أتسقط أخبارها من بعيد. علمت أنها أصبحت طبيبة وأنها فتحت عيادة صغيرة وسط العاصمة ولكنها ما لبثت أن أغلقت بعد

طلاقها الثاني من موظف في البنك. وعلمت أن زوجها الثالث كان فرنسيا مسيحيا وقيل إنه أسلم من أجل الزواج منها ، وأنه خضع لعملية ختان تحت تخدير عام . أنجبت سعدية بنتين من زوجها الثاني رفض أن يسلمهما إليها بعد أن تزوجت الفرنسي. وحين كبرت البنتان تجددت العلاقة مع أمهما.

سعدية على قدر لا بأس به من ذلك النوع من الجمال الأوروبي المتميز، شعرها ذهبي وعيونها زرقاء، الأمر الذي جعلني أكثر حذرا للتقرب منها، ولكنني أكن لها الود القديم الكبير.

لا يمكنني أن أنسى سعدية.. سعدية صديقتي التي تعرف عني أشياء كثيرة. وتعلم الكثير الكثير من أسراري، وتفهم نقاط ضعفي ونقاط قوتي.

سعدية ساندتني في مواقف كثيرة، وهي الوحيدة التي تدرك هلعي من تميز أندلس وانتصارها علي في كل شيء، خاصة انتصارها علي في استقطاب اهتمام الجميع منذ أن كنا ثلاثتنا في المدرسة ..حتى الآن وقد طلب الزعيم رؤيتها . !!

سعدية الوحيدة التي تعرف بأنني فكرت يوما في النيل من أندلس بطريقة جنونية، يوم حدث لي أن وقعت على حين غرة في غرام طالب زميل لنا. حين تقربت منه كي أنشد وده ، وقبل أن يتعرف على أحاسيسي تجاهه وقبل أن أشرح له ميلي له ،كان قد بدأ يشكو لي غرامه الطاحن لأندلس، ويصف لي عشقه الجارف لها، وقسوتها عليه،

وردها له، ورفضها لطلبه. كان حزينا دامع العين وهو يقسم لي بأغلظ الأيمان أن نيته سليمة و أنه يريدها امرأة حياته ورفيقة عمره، ولن يبدل بها أخرى أبدا مهما طال به العمر. أبدا. وطلب مني أن أوصل لها رسالته، ونيته، وشكواه و...

جننت آنئذ و لم أجد من ملجأ غير صديقتي سعدية، بكيت بين ذراعيها، ثم برقت في ذهني فكرة جهنمية فجأة، مسحت دمعي ثم قررت :

- سأقتلها .. !!!

شبت في حرائق الغيرة فأعمت بصري، فكرت في شتى طرق التخلص من أندلس، وصنعت سيناريوهات عدة في خيالي من كل ما تعلمته من مشاهدتي للأفلام البوليسية العالمية، وما قرأته من روايات وقصص الغدر .. لكن سعدية نظرت إلي بشفقة لا مثيل لها ثم قالت لي :

- لدينا حل آخر يا الياقوت.. سآخذك عند خداوج الشوافة، خداوج قزانة قادرة وواعرة، وفي يدها النار والعار..

أمي تذهب عندها عادة لتعيد أبي إلى البيت كلما هج مع إحداهن.. أبي مولع بمغنيات الراي، يتركنا بسببهن لأسابيع.. أخبرنا أحد أصدقائه في المرة الأخيرة أنه برفقة مطربة الراي الشابة كليوة في المنتجع الفلاني.. أتصور أبي في حضن الشابة كليوة أنفقس بالضحك لكن أمي لا يضحكها الأمر إطلاقا.

- والنتيجة ؟ أهي مضمومة تظنين، سعدية ؟ قلت بلهف.

- يجن جنون أمي .. ثم تقرر في الحي زيارة خداوج . الحق أنه كلما رجعت أمي بالحرز من عند الشوافة خداوج، إلا ويدق أبي الباب عائدا، وهو يضحك بجميع أسنانه.. !! متأكدة أنا بأن القضية ليست لعبا. النتيجة مضمونة مئة في المائة. الياقوت لا تخافي.. سترين، ستكتب لك خداوج حرزا تعلقينه على صدرك تحت الثياب، فتجدين معشوقك بين يديك، قلبه تحت قدميك. حرز يقيك من أندلس وأجدادها جميعا.. !

- لنذهب في أقرب وقت إذن.. يا سعدية وليكن غدا أرجوك. !

- المشكلة الوحيدة أن خداوج السحارة تطلب مبالغ باهظة . أمي تضطر قبل كل زيارة لها، بيع أساورها الذهبية لإعادة أبي إلى البيت ..

جميعنا في البيت، حالما نرى أمي أخرجت «صيغتها «من مخبئها، نعرف أنها تهيئ لبيع قطعة منها ، وتدخر ثمنا لزيارة خداوج ، وأن أبي طال غيابه، وحان الوقت لكي يترك الشابة كليوة مطربة الراي ، ويرجع إلى البيت دون راي . !!

في اليوم التالي ذهبت صحبة سعدية إلى حي شعبي في الأزقة الخلفية الفقيرة من المدينة. عند اقترابنا من أحد البيوت العتيقة سألنا شابا كان يبيع سمك السردين المشوي

وحوله الزبائن لكنه ينظر أبعد منهم وينادي بصوت مرتفع ملحن :

- أيا السردين .. السردين ..أرواح بنن واشبع يا مسكين!!.

كانت رائحة السردين المشوي اللذيذة المشهية تملأ المكان. لحد الساعة كلما شممت رائحة السردين المشوي ،أتذكر خداوج السحارة. وكلما تحدث أحدهم عن السحر أو السحرة إلا ورائحة السردين المشوي تصعد لتملأ خياشيمي. ارتبطت رائحة السردين المشوي برائحة الحروز والسحر وخداوج إلى الأبد.

- وين دار خداوج السحارة يرحم والديك ؟

نظر إلينا الشاب بعيني ثعلب ،وبرق عمق عينيه بابتسامة ساخرة. ثم أشار لنا بيده نحو الباب لم تكن بعيدة من موقعه كثيرا.

- هناك. !!

- صحيت خويا يرحم والديك. !

دخلنا الباب المنحني ،وإذا بباحة واسعة تتوسطها نخلة عتيقة، تتدلى أضلاعها اليابسة .. كانت بئر مغطاة تقبع إلى جانبها .. الصمت سيد المكان، إلا من طنين ذباب امتلأت به الساحة الواسعة، هيجته حرارة الشمس.

وقفنا وسط الباحة. أبواب غرف عديدة تفضي مباشرة إلى الباحة، أسدلت عليها ستائر سميكة مزينة برسومات بأزهار كبيرة أذابتها الحرارة ومحا ألوانها التقادم. عند عتبة

أحد الأبواب تراكمت كومة ضخمة من أحذية نسائية كثيرة مختلفة المقاسات والألوان ومتفاوتة الأناقة. تركنا أحذيتنا بينها ثم دخلنا.

عالم آخر.. نساء من كل الأعمار والطبقات. نساء منهن من تغرق في أثواب طويلة وعريضة، ومنهن من تطل سرتها من بين قطعتين ضيقتين، وأخرى بشعر مصبوغ وعدسات زرقاء، وأخرى تضع رجلا على رجل في زاوية الغرفة، وقد حرصت على أن تظل حقيبتها الأنيقة بجانبها. وأخرى صامتة تهز رأسها من حين لآخر، وأخرى تلعب بكمشة من المفاتيح بين أصابعها وتمضغ العلكة بفم مفتوح، وتفرقع الفقاعات بأعلى صوت. وأخرى تحت شفتها السفلى وشم أزرق، تحتفظ بنظارتها الشمسية الكبيرة فوق عينيها، وأخرى يلمع سنها الذهبي وقد وضعت يدها على صدغها تنظر إلينا بابتسامة مستفسرة وساخرة ..وأخرى وأخرى ..

رغم شساعة الغرفة، إلا أنها ممتلئة ،مكتظة على آخرها.

لم يبد على النساء أي ضيق أو حرج وهن يتحادثن . كانت الواحدة منهن الجالسة في أقصى الجانب الأيمن من الغرفة، تحاور بكامل الأريحية والحرية، وبصوت مرتفع جدا، المرأة القابعة بعيدا في الجانب الأيسر، تحدثها عن مشكلتها التي جاءت من أجلها لزيارة خداوج دون أن تعفو عن التفاصيل الدقيقة، وتسمي الأماكن والأشخاص، وتصف مشاهد جنسية مثيرة دون أدنى حرج.

- ثلاث شهور ما رقدش في فراشي بن الكلب. !

- أنا والله ما شفتو هذي عام، الحمار بن الحمار لاخر. ردت عليها الأخرى. !

- الله الله ..ربي يخلي لي حبيبتي خداوج ..تجيبلي ذاك البغل من نيفو.. مرة يكح ومرة يحزق ومرة يعرج. !

ترتفع عاصفة من الضحك بين النساء ..

وصلنا أنا وسعدية على الساعة التاسعة صباحا، وهاهو منتصف النهار يقترب. لم يبد على النساء أي قلق، ولا تذمر من هذا التأخر والانتظار. إلى حد الساعة لم تدخل أية واحدة، ولم تظهر الآنسة « المساعدة « لتنادي على إحدانا. أخبرتني سعدية أن «المساعدة» تعرف جميع الزائرات بأسمائهن- حسب رواية أمها -تأتي لترافق الواحدة منهن، حسب الدور، إلى حجرة خداوج الخاصة. والجميع ينتظر براحة وبلا اكتراث لمرور الوقت. غرفة أخرى أصغر تبدو أفضل قليلا من هذه ،ينسدل عليها ستار حريري. سألت سعدية عنها فأخبرتني أنها ربما تكون الغرفة المخصصة لنساء الوزراء والمسئولين، والشخصيات النافذة في السلطة.. حسب رواية أمها أيضا.

اقتربت سعدية من إحداهن وسألتها بتردد :

- متى تبدأ خداوج الاستقبال ؟

إذا بالمرأة وكأن نحلة قرصتها. تململت وعدلت قعدتها قبل أن تجيبها رافعة صوتها إلى دوجته القصوى، وكأنها تتحدث إلى الجميع :

- شوفي يا بنتي ..خداوج مطلوبة بزاااف بزاف.. على الصباح جات سيارة كحلة (رسمية) اداتها عند واحد الفوووووق !!

ثم بدأت المرأة تعدد مزايا خداوج، وتعدد أسماء المسئولين ورتبهم ،هؤلاء الذين قدمت لهم خداوج حلولا ناجعة لمشاكلهم الدبلوماسية والجنسية والاقتصادية والعائلية. ثم ذكرت أن وزير الأمراض ونقص الصحة ،زبون قديم ومداوم لديها. وكل شهر يبعث لها ببركة .

- شاك، ولا كاش ؟؟ نطقت واحدة من ركن بعيد تسأل.

- والله ماني عارفة يا ختي. الله يعلم ما يكونو غي دوفيز!!

ثم أضافت أن زوجة «وزير البطالة» ترسل إليها السائق الشخصي مرتين في الأسبوع . ثم فهمت أن خداوج اضطرت في إحدى العمليات قضاء الليلة عند «وزير المرض وتفشيه « لمقتضى المهمة، فعزيمة السحر تطلبت يومها أن تطلب منه التضحية بثور كبير أسود، في باحة قصره فلم يتردد لحظة. حضرت خداوج بنفسها للقيام بتراتيل، وتعاويذ وحركات، وأمور غريبة بدم الثور المسجى، كي يظل الوزير في منصبه ولا يطاله التغيير الحكومي الجزئي الذي كان مرتقبا. وتضيف المرأة أن الوزير ذاك، لم يبرح مكانه ولا منصبه على الرغم من تعاقب أربع حكومات متتالية.. كل ذاك بفضل قوة السحر لخداوج وما فعلته بدم الثور. نطقت زبونة أخرى تؤكد أن :

- جن خداوج جن أزرق. جن شارف، فاهم، وعارف. !!

فتضيف الأخرى من بعيد :

- مشي جن نتاع البارح ..مشي جن يرضع صبعو.. جن فحل وازدك .احنا مسلمين ومكتفين يا خيتي. !!

لكن زبونة أخرى تذهب إلى أن جن خداوج :

- صحيح ذكر وفحل، بصح معاه عفريتة تعاونو.. وتنظم لو وقتو وصوالحو !!.

اختلفت زبونة أخرى في الرؤية بحدة :

- لا لا ..لا لا ..لالة ما معاه حتى حد .. جن خداوج وحدو وحدو !!.

فجأة، دخلت امرأة أزاحت بكفها الستار، ثم همست بصوت خاشع وبرهبة :

- خداوج جات.. خداوج جات.. خداوج جات .. !!!!

سمع صوت محرك قوي ، يبدو أنه لسيارة مرسديس ضخمة، تتوقف عند الباب الخارجي. تململت النساء في أماكنهن. عدلن من هندامهن ،ثم وقفن جميعهن . وقفت أنا وسعدية بمحاذاة الستار.

دلفت سيدة ضخمة الحجم ، طويلة القامة ،عريضة الكتفين، داكنة السمرة بلباس أحمر قان، حول معصميها أساور ذهبية كثيرة وخواتم ضخمة لماعة. وقبل أن تعبر باب الغرفة لتدخل بابا صغيرا محاذيا، تصاعدت الزغاريد

و التبريكات. كانت النساء يرفعن الزغاريد عالية والدموع تنهمر على وجوههن ،فينزل الكحل سواق .

كان موقفا لن أنساه أبدا، حتى سعدية بكت. سألتها عن السبب فلم تجبني، بل استمرت في النشيج إلى أن طوقت ذراعيها زبونة كبيرة السن ، كانت تبكي هي الأخرى .. :

-ابكي يا بنتي ابكي.. باش تمحي ذنوبك. !!

خلفت خداوج رائحة عنبر قوية ملأت المكان، وحين اختفت ساد الصمت، وظلت النساء مطأطئات الرؤوس، مطرقات.

على السابعة مساء جاء دورنا.

بينما نحن نعبر الباب نحو غرفة صغيرة مظلمة تفوح منها رائحة الجلود، بعينيها المكحلتين، ألقت خداوج علينا نظرة متفحصة من خلال رموشها وحواجبها الكثة ، ثبتت صورتنا في قعر دماغها، ثم لم تعد تنظر إلينا إلا لماما.

كانت تجلس على زربية حمراء ،وقد سرحت ساقيها الضخمتين الطويلتين ، فظهرت قدماها مخضبتين بالحناء السوداء.

في هدوء تام تضع كفيها منبسطين على الأرض، وتنظر إليهما بتمعن. بينما نحن جالستين قبالتها، لمحت بقايا حيوانات، وحشرات في طبق من حلفاء. فجأة نظرت إلي :

- باغية تقضي عليها ؟

لم أرد ..لأنني وببساطة كنت مرتبكة. لا أدري هل نسيت لماذا جئت أم انعقد لساني ؟.. لكن سعدية أنقذتني بسرعة، هامسة في أذني :

- «أندلس» !

أجبت بعصبية واضحة :

- نعم نعم نعم أريد أن تنقرض .. أن تبتعد عن طريقي .. وأريد أن يحبني بدلها.. أن يحبني أنا. أن يحبني، أن يحبني أنا . !!

دون أن تنظر إلي، أشارت لي خداوج أن أضع يدي اليمنى على ظهر كفها الأيسر، ويدي اليسرى على ظهر كفها الأيمن القابضين على حفنة رمل أمامها. وبحركة سحبت يديها بسرعة لتترك يدي تسقطان في غفلة على الرمل. رفعت يدي، سادت لحظات صمت خلتها أبدا. كانت سعدية تطمئنني بحركات من رأسها ،بينما خداوج تنظر وتتقفى الآثارالتي تركتها يدي على الرمل دون أن يرف لها جفن.

لحظات خلتها دهرا.. صفقت خداوج مرتين، فإذا برجل أسود يمتثل أمامها. رجل صغير الحجم في بيد بستة أصابع .. ومن دون أن يحدث أدنى صوت، قرب منها الطبق المصنوع من الحلفاء الذي رمقته يحتوي على بقايا حيوانات وحشرات من ريش وأجنحة وأظافر وأسنان ومناقير وغيرها. و يضع بين يديها علبا مصنوعة من الحلفاء بإتقان ثم يقرفص أمامها. وضعت خداوج يديها المحنيتين في

حجرها وقد رمت رأسها قليلا إلى الوراء، كل ذلك وهي تحرك أحد أصابعها لتملي عليه أسماء متتالية ..

- ريشة الغراب من جناحو اليمين .

زيد عليه سن القرد العفريت .

زيد عليه بعر الفاربلا زرامة .

زيد عليه القازوت واختم !!

وكلما ذكرت خداوج بصوت واثق اسم شيء، إلا وأخذه الرجل الأسود بخفة و سرعة البرق بيده اليسرى ذات الأصابع الستة من الطبق أو علب الحلفاء ،ثم وضعه في يده اليمنى ذات الأصابع الستة أيضا، ليدسه في كيس أبيض صغير.

بسرعة عجيبة ،بيديه الإثني -عشريتين، زم فم الكيس الصغيربخيط، أحمر غامق ووضعه وسط كفيه ثم قربه من وجهها.. مغمضة العينين تمتمت خداوج كلمات مبهمة ، ثم نفثت من لعابها فوق كفيه وسلمته وريقة رقيقة صفراء كأن عليها حروفا عربية وأرقاما تكاد لا ترى من صغر حجمها وامحائها. وتحت أعيننا في صمت مطبق ثقيل وبخفة وسرعة مذهلة أخذ يخيط حرزا. شكله في ثوان، ثم وضعه بين يديها و قبل الأرض أمامها، ثم اختفى ..كان حافيا ..لاحظت أن له ستة أصابع أيضا في كل من رجليه.

- ماتنحيهش من عنقك.. أربعين يوم.. حتى في الحمام .. رجعي لي بعد أربعة وربعين يوم .. !!

صفقت خداوج مرة واحدة، فإذا بامرأة مسنة تجيء لتقودنا إلى الكونتوار لدفع الحساب. طلبت منا مبلغا لم يكن معنا نصفه . اقترحت سعدية أن تترك عندهم سلسلة الذهب التي تزين عنقها، رهينة لديهم ريثما نحضر ما تبقى من المبلغ.

خرجنا، كأني قد أصبت بلوثة أو دوخة ، كانت سعدية مثلي صامتة وحين مررنا على شاب السردين المشوي ،كان يغني أغنية راي شهيرة

- دارو السحور دارو ..

ودارو راااايهم وياااا...

ربي ربي ربيييييييييي

كانت الرائحة الشهية تملأ أنفي ورئتي .. ثم أردف قائلا بصوت يريد أن نسمعه وهو يلف بضعة سمكات لزبون :

- شوف آخويا شوف .. حرز خداوج راح يخرجني من الميزيرية.. قالت لي لعام الجاي راح نخدم في الشيراتون !! :

- الطالب الي دارلك ينعل والديه ويا

وأنا لي ربي ربي ربيييي ويااااا

دارو السحور دارو ..

ودارو رايهم وياااا

9

أنا ضائعة من غير سعدية !!.. ما الذي كنت سأفعله لولاها ؟ ربماقمت بخطأكارثي أندم عليه طول عمري . الحيلة سلاح ناجع تردد لي سعدية دائما مثل الذئب الفتي والثعلب العجوز:

– لا تنسي أبدا ياالياقوتأن للذئب الفتي أنيابا للدفاع عن نفسه أما الثعلب الماكر فله الحيلة كي لا يقع في الفخ.

عندما تغيب عن البلد أشعر بالضياع . حتى لو لم أكنألتقي بسعدية يوميا، وربما أغيبعنهاعدة أشهر إلا أنني لا استغني عنها. تظلبوصلتي وحضنا أرتاح إليه ..تعودت عليها.. إنها عشرة طويلة ..

لا أطيق بعد سعدية عن هذه المدينة. شعرت بالضياعيوم قررت سعدية أن تسافر إلى جزيرة مايوركا لتلتقي برجل ربطت علاقة بهاسمه باكو. ظل يحدثها في التليفون أشهرا عديدة وطالبا منها أن تزوره في مايوركا. أغراها صوته الجميل الدافئ العميق. ظلت تحدثني عن باكو برومانسية إلى أن قطعت البحر ونزلتالجزيرةلتفاجئه بزيارتها.كانت سعدية فرحة مثل طفلة وهي تغادر إلى مايوركا. حين ودعتني وقالت ليلا تنسي أنتزوريناأنا وباكو في مايوركاقريبا

.. كنت حزينة جدا. فهمت أنها كانت تفكر في الزواج به والاستقرار هناك.

ولكن مفاجأة سعدية كانت أشد حين وصلت إلى بيته، فاستقبلهاباكو بحرارة وسعادة فائقتين. خصص لها غرفةجميلةتطل على البحر وأعد مأكولات محلية لذيذة برفقة صديق له، وكانت سهرة رائعة تحدثوا فيهاثلاثتهم عن الحرب ،والحب ،والبحر،وعنتاريخ قطاع الطرق، وقطاع البحر الأبيض المتوسط، .كانوا يحاورون الأمكنة بنشوة ،كمنيحاور التاريخويعاين الجغرافيا التي لا تزال تخبئ أصوات أهلهامن العرب الذين مروابها، وتركوا حكاياتهم ،وأقوالهم،وآهاتهم، وأغانيهم في الآثار وأروقة الأزقة وفيالشقوق العتيقة المرممة، وفي رائحة الجدران، وفي النجوم المعلقة منذ أمد، شاهدة على الليالي والأحداث. وعما يجمع بينمايوركا ،وبين الضفة الجنوبية للمتوسط.

كتبت لي سعدية رسالة جميلة عن تأثر باكوبالتاريخ العربي في مايوركا. ومما كتبته في رسالتهاالمتأثرة :

.. أخبرك ياالياقوت أن باكو مجنون بالعربوحضارتهم، يقول إنه يسمع وقع حوافر الجياد العربية، وصهيل الأفرسة، ونداءات فرسان جميلين : بن سليمان وبنو فاتح وبوبشير.. وقع الحافر على الحافر.. ويقول :

– إن اللغة العربية بموسيقاها توقظ ملائكة المكان وعفاريته، وتوقظ العرب المسلمين الذين مروا من هنا في دمائنا، تؤجج في عيوننا فرحا كان.. جزيرة تحفة كانت ذات مرور للعربمن هنا. توقظ الأسماء أسماء الأمكنة،

والتواريختوقظ أسماء الأسر والناس، وأسماء المساجد التي علقت فوقرؤوسها النواقيس.. وأسماء الورق.

في الصالون علقباكو جملة ،وضعها في إطار خشبي عتيق جميل،ظلت تحوم في مسمعي لشاعر مايوركي كبير « yo soy arabe » (أنا عربي)

أصرباكو على أخذي إلى الكرنفالالسنوي الشهير الذي يقام على ضفاف المتوسط . إنه يعيد إلى الذاكرة المايوركية الحروب التي كانت قائمة لطرد العربمن الجزيرة. وإن كان الكرنفال ينتهي دائما بانكسار العرب إلا أن به إشارة واضحة ورسالة ليست تخفى على نبيه، ورغبة دفينة، وحنينا يصور العرب المسلمين في مختلف مراحل الكرنفال، في صورة أقرب إلى الكمال، في شجاعتهم، وشهامتهم، ورجولتهم، وجمال نسائهم، ورقة فرسانهم الأقوياء ،وذوقهم الرفيع، وفطنتهم،ولباسهم المتقن الراقي، وتفاصيل حياتهم المتحضرة. تفاصيل زمان أندلسي، لم يكن وصله إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس، حنين جعل الشاعر

المايوركي ميغويل لوبيز كريثبي يقول في لغته الكتلانية :

«عندما خرج العرب من الجزيرة، دخل الدجاج إلى الحدائق وغزاالماعزالقصور».

كانت رسالة سعدية طويلة، صورة حية لما رأته وعاشته، ولكنني شعرت بشيء ناقص في رسالتها.

عادت سعدية من مايوركا ذات يوم، على حين غرة ،كما ذهبتوفي قلبها غصة مستعصية.

أخبرتني أن باكو فرح بها أيما فرح وكان مستبشرا بوجودها في مايوركا. كان باكو ينظر إليها وكأنها قطعة من تاريخيسكن مفاصلهمعجب به إلى درجة الجنون. فيإحدى السهرات رأت باكويخاصر صديقه، ثم شاهدته يعانقه، ثم شاهدته يقبله. بكت بكاء مرا وعادت أدراجها ..عادت بخفي حنين.

مصائب قوم عند قوم فوائد ..أحتاج إلى سعدية دائما..الغريب أنني أعود إلى سعدية مرة أخرى لتنقذني منخطرطغيان أندلس علي.

ليس لي غير سعدية، سعدية عشرة عمر طويلة.

آه يا سعدية يا أختي ليس لي مهرب إلاك. دبري علي ..

10

- واش فكرك في صاحبتك اليوم يا الياقوت؟. حسبتك نسيتينا

- واش فكرك في صاحبتك اليوم يا الياقوت؟. حسبتك نسيتينا

- والله ما نسيتكم والو يا سعدية يا خيتي، بالصح الظروف ..أنا جيت قاصدتك أنت وحدك وما تقوليش لصحابنا لآخرين...

- علاش ؟؟ واش .. ؟؟خير إن شاء الله ؟

- مشكلة عويصة ، وسر، وحاجة عندها علاقة بالزعيم «صاحب الغلالة «، ورايحة نفسر لك كل شي ..

جلست قبالتي ثم أشعلت سيجارة وبدأت تتفحصني بشيء من القلق.

لقد نحفت كثيرا ولكن هذا لا ينقص في شيء من جاذبيتك. ستكونين الدرع الأخير الواقي لي من تلك المتعجرفة.

- من تقصدين ؟

- أندلس. !!

- مرة أخرى ؟ أندلس؟؟ سمعت أنها ستقيم معرضا بعد أشهرفي غليريه ببيروت.. صورها وأخبارها تملأ الصحف والمجلات.

- أتمنى أن تقيمه في جهنم.

بدأ القلق ينتابني، أردت أن أعرف بسرعة ما جاء» بالياقوت « إلي، بعد كل هذا الغياب و بعد تلك المقاطعة.

- علينا أن نلعب الورقة الأخيرة يا سعدية. جئت إليك لكي تساعديني .. أنت صديقتي حتى لو لم نلتقي منذ مدة ، فأنت مثلي أظن ذلك ،لا تنسي صداقتنا التي امتدت طويلا ..أنا الآن في أزمة ولا ثقة لي إلا فيك لكي ننجز اللعبة بسلام. وأنجو من شبح أندلس.

- وهل الأمر بهذه الأهمية كلها ؟

- نعم في غاية الأهمية !! الوقت ضيق.. فهو يريد أن يراها، لم يحدد الوقت ولكن رغبته عارمة لرؤيتها.

- .....

- في صالحنا فأندلس لا تبدي كبير رغبة في الاقتراب منه، بل فهمت منها أنها ترد طلبه ولا ترغب في لقائه.

- لا تريد لقاء صاحب الغلالة ؟؟

- لا .. أندلس التي نعرف كانت شوكة في الحلق أما الآن.. ثم زمت شفتيها...

- ومازالت كذلك!

- وأكثر مما تتصورين يا سعدية. أندلس لو تصل إلى مجلسه فاقرئي علي السلام. ستكون نهايتي على يديها وأنت من يعرف جاذبيتها.. يا رب ما هذا القدر ؟؟ أضروري أن تلتصق أقدارنا طول هذه المدة وأن تظل في طريقي ؟؟ كيف خطرت بباله كيف؟؟

- لاتنسي أنها فنانة تشكيلية مشهورة.

- ساعديني على استعمال الورقة الأخيرة يا سعدية.. ساعديني كى نبعدها عن صاحب الغلالة أرجوك، وسيكون لك مقابل ذلك كل ما تستحقين وما تريدين وما تشتهيه نفسك. ولن تقعي بعد الآن في ضائقة مادية أبدا. علمت أنك أغلقت العيادة.. سأخرجك من ذلك البار الحقير ويصبح لك فندق بخمس نجوم إن شئت وعيادة فخمة، وسيارات فاخرة وفيلات ورصيد معتبر بالعملة الصعبة. ستصبحين من المقربين للقصر ...فقط ساعديني على إبعاد أندلس من طريقه. أليس مصيرنا مشترك يا سعدية يا صديقة عمري؟؟

&&&&&&&&&&&&&&&&&&

هل ندمت لقبولي « اللعبة «كما تسميها الياقوت؟

لعبة أشعر الآن وقد اقترب موعدها، أنها لعبة متعبة، وخطيرة. وإن كنت لم أدخل بعد في دواليبها، فهاأنا ذي أتخوف الآن من نتائجها.. في الحقيقة لا أدعي أنني لست

مستعدة لمثل هذه المواقف. خاصة وأن الإغراءات التي قدمتها لي الياقوت تسيل لعاب كل من يسمعها. لست مبتدئة. يمكن لي بكل جدارة أن أسمي نفسي متخصصة ومتدربة. تعودت على متعة اللعب والخديعة، وأعرف تفاصيلها ودهاليزها، والتواءاتها، شعاري هو الاندفاع ..لا تردد ...

اندفعي. لا تترددي. لا تشعري الآخر أنك يمكن أن تتراجعي.. في مجتمعنا الويل كل الويل للضعيف، وللمتردد الذي يستشير قلبه قبل الهجوم، سيجد نفسه في الشباك بين أنياب الوحش. قانون الغاب هو السائد، كل شيء جائز للغلبة، كل الوسائل جائزة للوصول إلى الهدف. الحديث عن الأخلاق خطاب المعتوهين. ألم يردد أستاذ العلوم البيولوجية على مسامعنا : لا تصدقوا أن المدرسة تخرج السياسيين .الذين يريدون منكم أن يصبحوا سياسيين في المستقبل، عليهم أن يتمعنوا فقط في سلوك وحوش الغابة ويتعلموا. يبدو أن الياقوت فهمت الدرس جيدا على غير عادتها.

علي بالهدوء .. علي ألا أكبر ولا أعظم الموضوع أكثر مما هو عليه حتى لا أفشل. أليس هو في الأول والأخير مجرد موعد جنسي؟ لقاء جسدي عابر بين أنثى وذكر ثم ماذا بعد؟ ولي تجربتي في هذا المجال. وأستطيع القول إن لي مهنيتي و أسلوبي في الإغراء .. الحق يقال أحس أن الموقف مختلف هذه المرة. أنا خائفة سأمثل امرأة أخرى، مختلفة ، سوف لن أكون أنا، سأكونها هي، وكأنني «ألعب « دورا ليس دوري.

هل أستطيع أن أنسيه أندلس؟ هل سأكون المرأة التي بعدها تصبح أندلس لاشيء؟ تصبح نسيا منسيا؟ سنرى.!!

لا أدعي أن الدور سهل، إنه صعب ،بل صعب جدا ولكنه ممتع.. أنا قلقة .. سنرى على كل حال. !!

أفهم قلقي .. وأبرر خوفي ،وأحاول أن أتحكم في رجفتي. الزبون هذه المرة ليس ثريا دخل البار لينفس عن نفسه، بل رجل قوي، وهو الزعيم وصاحب غلالة، وراءه عسكر، وأسلحة، وبنوك، ورجال أمن، وأشياء ترهبني، وترهب الناس العاديين مثلي، الذين يعيشون أويموتون في صمت. بين ولادتهم وموتهم خط يراه البعض منكسرا، بينما يراه آخرون خطا مستقيما.

- كيف لي أن أواجهه ؟ لماذا قبلت اللعبة ؟. ما هذا الجزروالمد الذي يتجاذبني ؟ الله لا يربحك يا الياقوت يا صاحبة الصفارة والكرسي. بعد أن اختفيت مدة طويلة من حياتي جئت لتوريطي مرة أخرى .

تنتاب سعدية من وقت لآخر هزة ندم.

- هل تستحق الياقوت كل هذا مني ؟؟

يتحرك في قلبها غضب قديم وشيء من الحقد الدفين على الياقوت. هي نقطة قديمة سوداء في علاقتهما، تعتبرها سعدية الشوكة الوحيدة التي تقف في حنجرة صداقتها بالياقوت. لم تستطع أن تغفر لها منذ ذلك اليوم .

ليت ذلك اليوم لم يكن أبدا، لظلت صداقتهما دون شائبة.

أليست السبب في طلاقها من حميد زوجها الأول وحبيبها. هو الوحيد الذي أحبته سعدية بكل جوارحها.

حميد الشاب الوسيم، الذي فتن بشعر سعدية الأشقر، وعينيها الزرقاوتين. اختارها ،وتقرب منها ،ثم تزوجها على الرغم من رفض أهله لها.

أسرة حميد تقليدية محافظة لكنه بإصراره على الزواج منها ما لبث أن أقنع أهله، وأصبحت سعدية على علاقة عادية وطبيعية بهم. لم تدم العشرة طويلا بسبب الياقوت منذ حفلة عرس أخته.

أقنعت سعدية زوجها بدعوة صديقة عمرها الياقوت إلى حفلة عرس أخته. لم يتردد حميد في تلبية طلبها ،على الرغم من أنه لم يرتح أبدا للياقوت، وله مآخذ شتى عليها وعلى تصرفاتها وأخلاقها.. الابتعاد عنها في رأيه من بين شروط الحياة الهادئة.. إلى هنا الأمر عادي ولكنه لن يصبح عاديا حينما تنفذ الياقوت خطتها الجنونية أثناء حفلة عرس أخته.

تتسلل الياقوت بحجة الذهاب لقضاء حاجتها ، تدلف إلى حيث الغراريف المليئة بالمشروبات وعصير الفواكه المهيأ ة والجاهزة للتقديم للمدعوات. تفرغ بها زجاجتي ويسكي كانت تخبأهما في حقيبتها.

ألم ينتبه أحد لمذاق المشروبات الغريب غير سعدية ؟

حالما نظرت إلى وجه الياقوت أدركت أن في الأمر أمرا. فهمت للتو أنها لعبة جنونية من ألعاب الياقوت النارية.

لم تمل المدعوات من الثناء على الأكل والشرب وجمال العروس. و يبدو أن حرارة الصيف زادت من رغبة نساء البيت، و المدعوات في الارتواء أكثر فأكثر بالعصائر والمشروبات. بدا الانطلاق الشديد والراحة على ملامحهن.

تعالت الموسيقى، و بدأ الرقص ،وتحولت القاعة المخصصة للنساء إلى حلبة في حالة عامة من الهستريا، الضحكات العالية والقهقهات اللامتناهية ، والكلام بأصوات مرتفعة.

دخلت أم «العروس» إلى حلبة الرقص. أم العروس التي كانت من قبل تتوارى تحت مناديلها البيضاء السميكة، هاهي تحوم في رقصة جميلة خفيفة، حزمت على مؤخرتها بمنديل. تبدو في كامل سعادتها ونشوتها..طالت رقصتها واستطالت. دارت واستدارت. انتهت الأغنية .انتهت الأغنيتان. أم العروس، أم العروس ذاتها .ترقص، وترقص وسط الراقصات، في جلبة لا مثيل لها .

لا أحد يعلم ما الذي دفع بالمحتفلات إلى التراشق بالحلوى، والمناديل المطوية بإتقان و بالوسائد .لا أحد يعلم ما الذي يدفعهن للضحك من كل شيء وعن أي شيء. يستلقين على ظهورهن من شدة القهقهات تمزق حناجرهن. مرح وضحك متواصل ممتد .

نزلت العروس من مكانها المرتفع. نزعت الشاش الشفاف من على وجهها، ألقت به خلفا. كان الفستان الأبيض المنفوش تحت الخصر يتجرجر خلفها. بالكاد تتمالك على الوقوف. رفعت أطرافه. رقصت بجنون. كانت تدورو تدور. يرتفع الفستان الأبيض الواسع. تكبر دائرته. تدور

مغمضة العينين، رافعة ذراعيها في موازاة السقف. تزداد دائرة الفستان اتساعا. تتعرق. تبدو ساقاها عاريتين تحته. حذاؤها الأبيض ينزلق من قدميها. دائرة الفستان أوسع فأوسع. تسقط من الإعياء دون أن تتوقف عن الضحك. تنتهي جالسة على الأرض، رجلاها منفرجتان ،واللباس الأبيض لم يعد أبيض البتة.

فتحت النساء النوافذ والشرفات المطلة على الشارع الرئيسي. أزحن الستائر جانبا. تدافعن برؤوسهن وأجسامهن، وهن يلوحن بأيديهن، يخاطبن الرجال من المارة في الطريق السفلي المقابل :

- فيف لاليبرتي (عاشت الحرية)

لم يتردد المارة من الشباب في الوقوف والتجمع أمام النوافذ والشرفات المقابلة المكتظة بنساء مندفعات في كامل زينتهن، يقابلونهن ويرد ون عليهن بنفس الحرارة وهم يلوحون بالأكف وسط الشارع :

- فيف لاليبيرتي .

دخل حميد الصالة. الغيظ يهزه ،يحمر وجهه. شهب النار تتدافع من عينيه.

رمى حميد نظرة سريعة تجاه سعدية زوجته. كانت الياقوت تجلس إلى جانبها. تتسليان بحال النسوة وهما تشيران إلى كل واحدة وتتضاحكان. أدارتا وجههما، في ارتباك. كان قد فهم كل شيء.

وقبل أن ينطق بكلمة كانت الياقوت قد أمسكت بيد سعدية، وخرجتا تاركتين بيت أهل حميد .

في الشارع كان الرجال مازالوا يتكاثرون أمام شرفات بيت حميد وهم يلوحون للنسوة ويردون بحرارة على هتافاتهن :

- فيف لاليبيرتي

- فيف لاليبيرتي.

- لو لم تفعل الياقوت فعلتها الجنونية تلك لما طلقني حميد. كان لطيفا جدا معي، ومحبا لي، وكانت مشاعر قوية تربط بيننا. لو لم يحدث ما حدث بسبب الياقوت، لربما ظللنا معا إلى الآن. ومن يدري؟؟

من ذكرك بي اليوم يا الياقوت بعد أن خربت بيتي ..حميد زوجي الأول وحبي الأول. لا يمكنني نسيانه أبدا. على الرغم من زواجي مرتين بعد طلاقي منه، مازال بي شيء منه ،وشوق له كان رقيقا وولد فاميليا. كل ذاك بسببك فمن ذكرك بي اليوم يا ترى؟ !!

11

أين أنت الآن وقد تركتني أواجه الدقائق الطويلة الزاحفة نحوي وأنا أقترب من موعد ساكن القصر.

(سيأتون لأخذك على الساعة الصف. كوني متهيئة أرجوك. ثم لا تنسي وصاياي وستأخذين مكافأتك).

هذه هي الكلمة التي تسلمتها على ورقة رسمية، مع طرد ملفوف بعناية فائقة. جاءني بهما شرطي على دراجة نارية ضخمة الليلة الماضية.

- من طرف السيدة الياقوت الحاجبة الأولى حاملة الصفارة. تفضلي

قال لي وهو يسلمني الطرد والرسالة عليهما ختم رسمي.

- توقيع صغير من فضلك.

مد لي قلما وملفا ضخما، وقعت بالاستلام، شكرني وانصرف. ضجيج الدراجة النارية الضخمة يبتعد. يتلاشى. كنت أتلاشى.

انتصبت أمام المرآة بأبهة .تجردت من ثيابي كانت النتيجة مبهرة. تذكرت عبارة الياقوت :

- لا أريد أن تكوني أقل من أندلس في أي شيء .أنت أيضا جميلة..

نعم أنا جميلة الآن. بل أنا فاتنة بعد كل تلك العمليات التجميلية. أصبحت قنبلة جمالية موقوتة بامتياز.

قنبلة جمالية ستنفجر عما قريب في وجه صاحب الغلالة.

- عمل متقن. دون ريب. هل أقول شكرا لله، أم شكرا للياقوت، أم شكرا لعيادة «أبو عقل» أم شكرا لأموال الدولة ؟؟

من يومين فقط رجعت. بعد ثلاثة أشهر من الغياب، وغدا سأراه نعم غدا الموعد الكبير.. غدا سأضاجع أعلى قمقم في هذا البلد. أليس الأمر في غاية التسلية ؟

هل الياقوت كريمة معي أم كريمة مع نفسها ؟

ما هذا الكرم يا الياقوت ؟؟

لست أدري كيف تفعل الياقوت لتتصرف في كل تلك الأموال الطائلة بتلك البساطة وتلك السهولة ؟.

أهذا من فضل ربها ،أم من فضل الصفارة والكرسي اللذين تحظى بهما ولا تريد بأي شكل من الأشكال أن تتخلى عنهما لأحد وخاصة لغريمتها أندلس ؟؟

سخية معي الياقوت غاية السخاء..

ذاك المساء جاءت إلي في البيت، وقد تركت مرافقها كالعادة خلف الباب. قبل أن تجلس وتشعل سيجارتها كانت تلوح لي ببطاقة طائرة عرفت أنها بطاقة ذهاب وإياب إلى بيروت :

- ألو ألو..ألو بيروت من فاااضلك ياعينيي . ثم ضحكت بقوة.

حين جلست اكتسى وجهها جدية صارمة وهي تشرح لي أن علي أن أسافر في اليوم التالي إلى بيروت، وأن معاونيها قاموا باتصالات حثيثة مثمرة كلها، وكل شيء على ما يرام.. وأنني سأقيم في فندق خمس نجوم بشارع الحمراء ، وسيكون جميع أطباء ز جراحي عيادة أبو عقل في انتظاري، لأن جناحا كاملا في العيادة حجز لي، ودفع الثمن مسبقا وحسم الأمر.

- فكرت في أطباء باريس وعياداتها - قالت الياقوت وكأنها تحدث نفسها - إلا أن شروطهم البنكية معقدة وصعبة و تكسر الرأس .. ثم إن الأمر مستعجل ..أضافت. ثم أنك لا تعرفين ولم تزوري في حياتك من قبل عاصمة دولة عربية واحدة ؟آنه؟؟

- لا.. أبدا ..

- فرصتك إذن لزيارة بيروت، وكما يشاع، من يزور بيروت تغنيه عن بقية العواصم العربية.

فكت من بين سجل الأوراق الذي تحمله صورتين مكبرتين، واحدة لي والأخرى لأندلس، بالأبيض والأسود، عليهما دوائر وصلبان وعلامات×.

وضعت الصورتين متجاورتين على الطاولة، ثم أخرجت قلما فسفوريا وبدأت تشرح. ذكرتني بأفلام الحروب عندما يفرد الجنرالات الخارائط أمامهم في جلسة مغلقة، فيخططون لمصير ومسار المعارك، فيعطون توجيهات لقائدي فيالق الجنود نحو وجهاتهم أو حتفهم :

- أولا يا سعدية عليك أن تطمئني. سيعاملك أطباء عيادة أبو عقل مثل أميرة. دفعت لهم مبلغا ضخما لم يحلموا به قط منذ أن فتحوا أبواب عيادتهم مقابل خدماتهم، واشترطت أن تكون العمليات دقيقة وسريعة. أنظري سيبدؤون بالصدر، بتكبير ثدييك بحجم يشبه حجم ثديي أندلس، تذكرين كم كنا نغار من صدرها المكتنزو المرتفع؟ قالت ذلك بينما هي تضغط رأس القلم بقوة فوق صدر أندلس على الصورة.

كنت كمن أصيب بالذهول ..

- ثم الشفتان... جادة، كانت تشرح وهي تضع قلم الفسفور على فمي في الصورة. أضافت :

- سيجرون لك عملية نفخ الشفة السفلى حتى تضحى أكبر من العليا. سيكون ذلك أجمل. ربما هذا ما يميز أندلس، شفتها السفلى المكتنزة تعطي لوجهها سمة مرحة ومتفائلة ومبتسمة وجذابة..

ثم دون أن ترفع عينيها عن الصورتين واصلت كلامها :

- العملية الثالثة تتعلق بأنفك يا سعدية. تدارست أمره مع الدكتور موسيو جورج، طبيب الجراحة التجميلية الممتاز،

وهو في الوقت ذاته ممثل عيادة أبوعقل في الخارج. تنقل إلى هنا خصيصا. جاء من بيروت إلى بلادنا بعد أن تكفلنا بكافة نفقات سفره وإقامته وأتعابه..

رأي الدكتور جورج أن يتم نجر أنفك قليلا من الأعلى، ثم تصغير حجم الأرنبة فيه، رأيه أنها كبيرة بعض الشيء بالمقارنة مع المساحة العامة مما جعلها تهجم على الوجه، الأمر الذي يمنع حدوث التناسق والهارومني بين ملامحك. هززت رأسي موافقة وأنا أصغي إليها وكأن الأمر يتعلق بشخص آخر.

- طبعا يا سعدية، يا عزيزتي، سيكون من البديهي أن يلتجئ الأطباء التجميليون كعادتهم مثلما أوضح لي بإسهاب موسيو جورج في عيادة أبو عقل الشهيرة إلى تقنيات عادية، مثل البوطوكس وغيره في نفخ الخدين، ومناطق الوجه المختلفة لتسريح التغضنات والتجاعيد. وسيزينون جبينك بنجمة صغيرة فتانة. وستنعمين بمساجات لم تحلمي بها أبدا في حياتك لا عليك ..

قالت ذلك بشيء من المرح طمأنني.

- ستنعمين لمدة شهر كامل بالعناية وستخرجين منه كما يخرج الواحد من الحمام مختلفا. وستظلين هناك في استجمام مدة شهرين كاملين كافيين في ظني كي تتعلمي فنون الأنوثة البيروتية. بلد فيروز، وجبران خليل جبران، اللذين تحبهما أندلس.

(دخول الحما م مشي كي خروجو.)

صمتت الياقوت لحظات ثم أضافت :

- شيء آخر في غاية الأهمية يا سعدية ،كدت أنسى أن أخبرك عنه وقد تحدثت فيه مع الدكتور جورج وهو شعرك..

- شعري.. ما به شعري ؟

ثم بواسطة قلمها الفسفوري، كانت ترسم خطوطا طويلة تمتد من قمة الرأس حتى أسفل الظهر على الصورة.

- نعم يتعلق الأمر هذه المرة بشعرك.. تاج رأسك .لا أخفيك أن لصاحب الغلالة ضعفا غريبا تجاه الشعر. يدوخه الشعر المنسدل ويذهب بصوابه. ولكي لا أذهب بصوابه إلى غير رجعة، فقد اتفقت مع الدكتور جورج على أن تضاف إلى شعرك هذا خصلات كثيرة تشبه إلى حد أقصى شعر أندلس . كانت توجه نظرات نارية مشتعلة إلى صورة أندلس .

جمعت الياقوت أوراقها. وضعتها بعناية في مغلف طبي عليه علامة الأفعى الملتوية حول القضيب. ثم قامت للخروج حتى دون أن تسمع رأيي في الموضوع. عانقتني ثم أضافت وهي تشير إلى بطاقة السفر:

- ترجعي بالسلامة.. سأكون في انتظارك على أحر من الجمر، وموعدك مع الزعيم صاحب الغلالة في اليوم الثالث من عودتك. أخبرته أنني أهيئ له مفاجأة الملوك، حورية لم يهنأ بها فراش هارون الرشيد، مفاجأة تليق بمقامه . وعدته بالجنة.. !!

ثم أضافت وهي تغلق الباب خلفها :

- لاتنسي الملف الخاص بشخصية أندلس، خذيه معك إلى بيروت لمطالعته كلما سمح لك الوقت. !!

الحق يقال لم أكن تعيسة. كنت متعجبة، كنت مستغربة.

كيف دخلت الياقوت في نسيج القوة السوداء المدمرة، التي لا تتراجع أمام أي شيء كلما شعرت بالخوف؟ لا تتراجع أمام أي شيء كلما أخذت العزم على تحقيق رغبة ما. لا تتراجع في إصرارها على إبعاد خطر أندلس. إصرارها على البقاء في السلطة إلى آخر نفس.

«السامط يغلب القبيح « ذاك شعار الياقوت الدائم.

عبرت ذهني فكرة تحولي إلى ما يشبه فأر التجارب في المختبرات البدائية. شعرت باستصغار وأنا أستمع إلى شروح الياقوت وكأنني جزء جامد من اللعبة. كنت أتأكد أكثر فأكثر أن الياقوت مستعدة للحفاظ على حظوة وود صاحب الغلالة والبقاء في خدمته بكل السبل . ستستعمل للإبقاء على كرسيها، وصفارتها، وحظوة صاحب الغلالة كل ما أوتيت من دهاء ومكر. الياقوت قادرة على فعل كل شيء ..حتى القتل.. محتمل و وارد.

xxxxxxxxxxx

لم أقرأ في حياتي كومة من أوراق مثلما فعلت هذه المرة .. بعثت الياقوت إلي بملف ضخم .أكوام من الأوراق والصور، تقارير عديدة ومتنوعة عن أندلس، وصور لها كثيرة ومختلفة، منها قديمة وأخرى حديثة جدا.

علمت عن» أندلس» كل صغيرة وكبيرة، كل شاردة وواردة كما يقولون في العربية الفصحى..

أعرف الآن أصلها وفصلها. أعرف تاريخ أفراد عائلتها. عن أبيها ولد العربي ولد سيدي منديل، وأمها بنت سيدي امحند بن بوزيان، وجدتها التي ربتها لالة أندلس بنت الحسب والنسب، وعن عمها وعماتها الذين تبنتهم جدتها، وربتهم واعتبرتهم أبناء لها.

أعرف جوانب غامضة من شخصيتها وطريقة فهمها للحياة. ما تحب وما لا تحب. أعرف ألوانها المفضلة وموسيقاها المفضلة، وأكلتها المفضلة. أعرف مشيتها ورقصتها. أعرف أنها مازالت متعففة وأنها من أولئك النساء المتمنعات صعبات المنال. أخبرتني الياقوت أن صاحب الغلالة قال لها وهو يتنهد :

- من يملك أندلس كأنما يملك النساء جميعا!

هل أستطيع أن أتحداها ؟ الياقوت تريد مني أن أبهر صاحب الغلالة، فأنسيه رغبته في لقاء أندلس. قالت وكررت صريح العبارة :

– أخشى إن هو التقى بها ينساني ،وينسى حتى أمه التي ولدته، ويضيع اسمه، وألقابه التسعة والتسعين!

كيف السبيل إلى جعل أندلس عادية كالأخريات؟ كيف السبيل إلى نزع عنها صفة لؤلؤة عصرها وجوهرة فريدة بين قريناتها ؟ أليس لها شبيهات؟

– سعدية.. كوني ظلها، كوني شبيهتها. صورتها طبق الأصل إن استطع، قلديها في كل شيء، اسرقي بهاءها، لينتهي تميزها إلى الآبد في عين صاحب الغلالة.

اقرئي كل ما يتعلق بها وامتلئي بها حتى يختلط عليه الأمر. لابد أن ينساها بك .. إنها خطيرة لم أر أخطر من أندلس على صاحب الغلالة!

الأفدح أنه هو من أجبرني بتعيينها في منصب مهم جدا، لم يقترح ذلك عليها بل عينها دون علمها ودون استشارتها. يريد أن يفرض عليها حياة أخرى لتكون قريبة من مرماه. طلب رؤيتها مني. أخبرتها برغبته فلم تكترث للأمر، بل فهمت أنها ترفض. وقالت صراحة :

– لا علاقة لي به ويمكنك أن تجدي من تقوم مقامي بسهولة.. !

نعم رفضت ..رفضت ولكن الزعيم مصر.. فالعبي دورك يا سعدية كما يجب، إنها فرصتك، أنت صديقتي، وبيننا عشرة طويلة، وبيننا خبز وملح. وهي فرصتي أيضا كي لا يخرج اهتمامه من ملك يدي، ولا تضيع مني السلطة، ولا يضيع مني الكرسي والصفارة. أنت أيضا جميلة يا سعدية

وفي شخصيتك نقاط قوة ليست عند امرأة أخرى. صاحب الغلالة «يموت» على النساء المتميزات.

أعدك يا سعدية إن أنت تمكنت من السيطرة على اهتمامه، فإنني لن أنسى جميلك، وسأكافئك بطريقة لا تخطر على بالك، المهم علينا أن ننجح في صرف اهتمامه عن أندلس. لابد أن ينسى الحديث عنها.. أرجوك سعدية، أعملي مجهودك. أتذكرين ما كان يقال عنا « إن كيدهن لعظيم».. كم من الحيل الشيطانية نجحنا جراءها في التفريق بين عشيقين أو صديقتين أو صديقين ؟ ولا تنسي ما كنا نردده دائما عندما كنا نشرع للتخطيط للإيقاع بأحدهم أو إحداهن :

«إذا حلف فيك راجل بات راقد، وإذا حلفت فيك امرة بات قاعد». !!

أطرقت الياقوت لحظات، ثم أشعلت سيجارة نفثت في الهواء. كانت قلقة وهي تردد :

– من أين خرجت لي أندلس هذه؟ كنت مرتاحة يا سعدية والله كنت مرتاحة ! كيف خطرت على باله.. ألم يشبع من النساء أشكالا وألوانا ؟!

سقتهن له مثل القطيع : البيضاء والشقراء و السمراء والحمراء والطويلة والقصيرة والربعة والسمينة والنحيفة والمتفرنسة والمعربة، أجمل عاهرات البلد تمرغن على سريره. ماذا تزيد عنهن» أندلس» هذه ..؟

..يقول إنها فنانة.. قال فنانة قال ..فنانة طيزي. !

أضافت بغضب غيرة حارقة!

- ألا تخشين أن يصل إليها عن طريق غير سبيلك؟

- لا .. ارتاحي.. من هذه الناحية اطمئني، فهو يحرص على سرية موضوع علاقته بالنساء. ولا يريد أن يعرف أسرار سريره أحد غيري.. والحقيقة لا يعرف أحد في البلاد هذه الأسرار غيرنا نحن الثلاثة أنا وهو وصديقة لي تعمل في القصر.

أنا وهي كنا الحظيتين الأوليتين في قصره ،حين كان فحلا حقيقيا في أتم قواه الآيروتيكية. أما الآن الأمراختلف، صار يعافنا ويدعي أننا لم نعد نثيره.يغطي على عجزه بادعاء الملل، فحولنا إلى مجرد قوادات له.

ثم هناك سبب آخر قوي وهو أن أندلس متعففة كثيرا، ولا يمكن أن تنساق فهي لم تتغير منذ أن كنا في المدرسة.. أتذكرين كم كنا نحسد ها على جاذبيتها على الرغم من تعففها وصعوبة مراسها. حتى هناك الكثير منا كان يظن أنها متكبرة.

- لها وجهة نظر في الجنس تبدولنا غريبة. كانت تقول دائما إنها ستحتفظ بعذريتها للإنسان المناسب الذي ستحبه وتمنحه حياتها، وتعتقد إن المرأة السهلة التي تسلم نفسها ببساطة لرجل ما تفقد بريقها سريعا، وأن كل قبلة، أو عناق، أو مضاجعة تنقص شيئا من بريق المرأة وجاذبيتها وتذبل أنوثتها. كل رجل يضاجعك يمتص منك شيئا من مائك، فتجفين مع ازدياد العدد والتجارب. لست أدري من أين جاءت بهذه الأفكار العجيبة والفلسفة العوجاء.

– ربما أندلس على حق. ألا ترين أنها لم تفقد جاذبيتها إلى الآن ؟؟

– حمقاء ليس إلا.. مشغولة بالتفاهات، بذاك المسمى جبران خليل جبران و الأغاني الرومانسية لفيروز وبالفرقاني وأحمد وهبي وروايات كزانتزاكيس وغيرها من الخزعبلات المضيعة للوقت.

– على أي حال فما زالت أندلس تملآ أحاديثنا مثلما في الزمن الأول.. ألا تلاحظين، لن تنكري هذا.

– معك حق ،سعدية، يبدو أنها قدرنا بنت ال...

– لا تخافي يا الياقوت يا عزيزتي، سنتدبر أمرها كالعادة.

– خطيرة خطيرة، منذ زمان المدرسة و هي خطيرة، كم حز في نفسي آنذاك أن أذكى زملائنا وأكثرهم وسامة كانوا يتوددون لها بذل دون أدنى التفاتة منها. كان ذلك يجنني ويفقدني صوابي..

– أتذكرين حين اكتشفنا تبادلها رسائل الغرام مع «سيدهم عبد النور» أقمنا قيامتنا على أوتاد ولم نقعدها. أشعنا الخبر في الثانوية كلها كي تفقد أندلس من بريقها، ويبعد عنها العاشقون الكثر..

– مازالت أندلس حتى الآن تدعي أنها عزيزة النفس، بل هي متكبرة و متعجرفة، لا أخفيك أنني أكرهها ويصيبني منها وجع رأس أصفر. وكم أخشى على صاحب الغلالة منها، ومن جاذبيتها.

أعلم أن الزعيم صاحب الغلالة من كثرة تجاربه وتفقهه في أمور النساء اكتسب حاسة شم الإناث، حاسته أقوى من حاسة الكلاب، لا تخطئ إلا نادرا.

أخرجت الياقوت حبيتين مثل الأسبيرين من حقيبة يدها. بلعتهما .

- مازلت تأخذين هذه الحبوب اللعينة ؟

بهزة من رأسها أجابت الياقوت مؤكدة، وبحركة من يدها كأنها تعني : مع الأسف.

كم من السجائر دخنت الياقوت وهي تشرح و تؤكد في قلق وعصبية بينين زادا من تخوفي وإدراكي أن العملية ليست مجرد لعبة :

- يجب الحفر في ذاكرة أندلس، يجب أن أكرر وأؤكد إذن ..إنها تحب فيروز وإديث بياف وتحب أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب والشيخ غفور وماريا كاري وتحب موسيقى وأغاني البلوز.

- أعرف. أعرف يا الياقوت. أعرف أيضا أنها تهوى الموسيقى والأغاني الأندلسية، بل و تدندنها وتغنيها أحيانا ؟

- صاحب الغلالة أيضا يهوى الطرب الأندلسي.

- آه؟؟؟ ليس الأمر صدفة.. تذكري كذلك أن لها ضعفا بالغا تجاه الأغاني الشعبية العتيقة التي ترتكز على قصائد شعراء الملحون.

- لم نكن نراها إلا وهي تحمل معها كتابا . تقرأ كثيرا جبران خليل جبران والمنفلوطي وروني شار وسان جان

بيرس وإليا أبو ماضي وأبو القاسم الشابي وشاعر آخر كانت تقرأه بخشوع لا أذكر اسمه ..

- آه أليس سعيد عقل ؟

- نعم هو ذاك. برافو. أرجوك يا سعدية راجعي جيدا كل شيء. تخيلي نفسك أمام صاحب الغلالة واحسبي لكل موقف حساب.

تسحق الياقوت بقية السيجارة وتنفث في الهواء آخر أنفاسها :

- من حسن الحظ أننا نعرفها منذ زمن بعيد، أندلس ليست غريبة علينا، نقاط قوتها نعرف أغلبها وهذا في حد ذاته في صالحنا، يبقى فقط استرجاع ذلك بشيء من التركيز، واستغلاله في الموقف الحاسم في مكانه وزمانه.

- لربما قوة الأنثى فيها هي التي أثارت انتباه الزعيم صاحب الغلالة. أنوثتها أقوى شيء فيها ، أنثى متوحشة، كأنها تسخر وتوظف كل ما تعرفه من أجل أنوثتها. ربما دون أن تدري.

- لا تنسي أنها فنانة وهذا أيضا مهم. صراحة علينا التفكير بجد في استخراج استعمال كل ما من شأنه أن يكشف لنا ميزة من مميزات شخصيتها.

- فعلا فعلا، على كل حال أعتقد أنك ستوفقين في اللعبة.

- أوكي .. أوكي ماتخافيش.

ربتت الياقوت على كتف سعدية ثم أشارت لها بالوقوف، ثم بالمشي بعض الخطوات والدوران حول نفسها.

– اجلسي على جنبك الأيمن ..على الأيسر ..انحني .استلقي.. إضحكي ..تكلمي ..إبكي .. ابتسمي ..قفي ..تمشي .. دوري.. حركي ردفيك بوقاحة ..أكثر أكثر ..

تتفحصها بعين الذئب، تطيل النظر في كل جزء من جسدها. عيناها الفارغتان، الباردتان ،الصقيعيتان تعريانها، تملآنها بالثقوب. ثقوب بعدد مساماتها. مثل غربال تصير، تعدان أنفاسها ودقات قلبها .تشاهدان ما يختبئ في أمعائها. تقيسان حرارتها وتقيسان المسافة بين مثانتها ورحمها، تحدد المبيض منها والمهبل ترى حمرته وسمكه، وقابليته للانتفاخ السريع والشد والانزلاق. تحسب حركاتها تغلغل الضلع في الضلع منها.

هل سعدية مرتبكة أم خائفة ؟

كانت أصابع الياقوت الجليدية تنزلق فوق جسدها بمهنية العارف. كأنها تمتحن ملمسه، أو رجع الصدى فيه. اختلط الأمر عليها. هل هي الياقوت صديقة عمرها ؟ أم لم تعد صديقة أحد.؟

أم هي هو : صاحب الغلالة ؟؟.

هل هو المتنكر فيها. أم تنكرت فيه ؟

أم أنها هكذا تعودت أن تجس البضاعة الجديدة كل مرة.

كم عرت من امرأة قبلها ؟ كم مرة اندست في شبق سيدها أو اكتظ شبق سيدها فيها ؟

من أعطاها الحق أن تجربهن قبل أن تسلمهن له؟

هل هو يعرف ذلك ؟ هل بأمره؟

هل تقيس مدى قدرتهن على التأثير فيه أم تخاف منهن عليه ؟ هل تريد أن تسبقه للانتشاء بهن ونشوتهن به ؟ هل تطمئن إلى أنه يمكن أن يسترد فحولته المرتخية لكن إلى حين، فيرضى على خدماتها الجليلة ويبقي عليها حاجبته الأولى ،ويترك لها الامتيازات : تحتها الكرسي وبين يديها الصفارة ؟؟.

لم تكن سعدية مرتبكة ولا خائفة. كانت فاغرة فاها من الدهشة. صحيح ..صحيح جدا.. يتغير الناس حالما يضعون مؤخراتهم على كرسي السلطة ؟

يتغيرون ..يتغيرون جذريا فلا نعد نعرفهم.

12

.... سأراه اليوم .

منذ الصباح بدأت الاستعداد : اغتسال، وتدليك، وتقشير، وتمشيط، وتعطير،واختيار للثوب اللائق ، والحذاء اللائق ، أستعيد درسي في التدرب على المشية المغناج، والتدلل، والكلام الموزون، والنطق الهموس الذي تخرج نبراته مابين الحلق والأنف. إتقان الجلوس والوقوف أمام المرآة ..

لا مهرب من وصايا الياقوت .

أصعب الأيام كلها هذا اليوم الأخير، منذ الصباح ومشاعر غريبة متناقضة تتلاقفني. أخاف من كل خطأ مهما صغر ..

درت حول نفسي عدة مرات، قالت المرآة في الدورة الأولى :

- « الزين امليح يا لالة ، يبلى وما يطيح.

وفي الدورة الثانية قالت :

- الزين يروح ويبقاوا حروفو.

وفي المرة الثالثة قالت وهي تغمز :

- زوق العويد يولي جويد.»

أغلقت الباب دوني.. وأمام المرآة الكبيرة، قرب الشرفة المفتوحة ، كان جسدي الجديد يعوم في الضوء ، يلوح لي حقيقيا لا غبار عليه .. لأول مرة أخلو به وأنا أنظر إليه بدهشة و بإعجاب.

لأول مرة اكتشفني بلا شك داخله.

أقابله على انفراد دون أن أتجاهله.

لأول مرة أقلبه على أوجهه وكأنه تمثال نادر ثمين أهدي إلي . أقلبه وأشمه وأسمعه وألمسه وأتذوقه.

لأول مرة أجلس إليه دون الرغبة في القيء، ودون أن تغمني وتخنقني رائحة الحامض المنبعث من غرف العمليات.

في المرآة، كانت أنا الجديدة تنظر إلي مثل قطة. أستأنس بها، تستأنس بي. أتفرس في وجهها، تتفرس في وجهي. أطيل النظر كي أحفظ ملامحي الجديدة فيها، فلا تختلط من بعد في ذهني مع ملامح واحدة أخرى. أتعرف بجد على تفاصيل جسدي الجديدة كي لا أنسى.

كم تغيرت !! كم صرت أشبه بنجمات هوليود، بصدورهن المرتفعة، العالية، السخية وشفاههن المكتنزة ووجوههن البراقة الصافية الملساء.

أرسلت شعري الأسود ليغطي جزءا من ظهري العاري وينسدل حتى ما تحت الركبتين. وضعت يدي على ثديي انتفضا، فلمعت الحلمتان النافرتان تحت الضوء، تحركت

النار داخلي، شبت في مفاصلي، كانت الشفتان المكتنزان تشتعلان، تبحثان عن شيء ما..

لماذا يساورني السؤال :

- هل هو جسدي فعلا ؟

أأنا مازلت سعدية ؟ هل هذا الكون كله من التكورات، والإضافات والنقصان، جسدي أنا لوحدي ؟ لي وحدي ؟

أم هو جسد تشترك معي في امتلاكه الدولة .

أليست هي من صقلته على هواها؟

هل أملكه فعلا ؟

أم لم أعد أملك فيه غير ما تبقى من ملامحي القديمة المندثرة تحت الخيوط، والهواء والسوائل؟

ربما لا أملك فيه شيئا أصلا، لأن الدولة دفعت ثمن واجهته الجديدة مثل أية عمارة أو مرآب تابع للقطاع العام. ربما أضافت الياقوت إلى فاتورة ترميم المراحيض العمومية ما أودعته في رقم حساب عيادة أبو عقل رقما خياليا من المال العام . إذن فهو ملك عام، ملك البايلك، مشاع يملكه كل من هب ودب، ولا يملكه أحد .

لم أعد سيدة نفسي لأنني لم أعد سيدة جسدي. لقد أخذوه مني وسلموني جسدا آخر يليق بليلة في فراش شهوة صاحب الغلالة. كيف حدث أن سلمتهم نفسي دون إرادة مني ؟

كيف حدث أن سلمتها لهم دون دراية مني ؟

أدركت أن الياقوت هي الأخرى لا تملك نفسها. جميع من هم مثلها لا يملكون أنفسهم. هم عبيد مثلي. يمتثلون لمن صقلهم على الشاكلة التي هوى وأراد.

ربما أندلس وحدها تفطنت للعبة. ظلت بعيدة عنها. بمنأى عن الجراح و السلاخ والمساخ. بمنأى عمن يستعدون كل الاستعداد ليرمموها على مزاجهم، ليمزقوا روحها قبل لحمها. ليعيدوا خياطتها وتفصيلها كما يشتهي دافع المبلغ، ثم يضعونها بأناقة في طبق جميل أمام آكلها.

- لا تتفلسفي كثيرا. كأس ويسكي كفيل بك وبكل شيء. من وصايا الياقوت.

الآن .. الآن ينتظرني أهم ذكور هذا البلد وأقواهم وأشدهم بأسا .. سينتهي من أمر قواده وعساكره وخدامه ومواليه وأئمته وقناصله و رجال بحريته وأرض- أرضه وجو- جوه. سينتهي من تواقيعه على مراسيم الجريدة الرسمية، ثم يجلس على حافة سريره ينتظرني ..

ينتظرني أنا. من بين أربعين مليون من ساكني القصور والقبو، ومتوسدي الأرصفة، والهائمين على وجوههم في الطرقات، والحراقين المنتظرين على الشاطئ دورهم للإبحار في مراكب الهجرة أو زوارق الموت. ومن المحشورين في الشقق الضيقة، وصائغي الخطب، والأئمة، والسراق، والطبالين، والمنافقين، والرابضين على الحدود الشرقية، والغربية، والجنوبية، والساهرين على الموانئ وحفاري القبور.

ينتظرني أنا « سعدية الجمل» كما كانوا يطلقون علي في المدرسة.. لست أدري لماذا» الجمل»، هل لطول قامتي أم لطول بالي؟

ينتظرني أنا خريجة البارات ،السكيرة ،الخميرة ، لا اسم لي ولا لقب لي ولا حسب لي، ولا نسب لي، ولا شرف لي، ولا ولا ولا ..

المؤكد، الصحيح، الصحاح، أن أهم ذكور هذا البلد، غلالة رأسهم جميعا ينتظر حلولي عليه، وخطوتي إليه ..ينتظر مني أن أنعش عظامه وأحيي عروقه أن أبث فيه رعشة الحياة اللذيذة، وأغسل يومه من غبار القيادة.

ينتظرني وكل هذا بسبب الياقوت صديقة الطفولة والعمر..أو لأقل بفضلها.

هل أصدق أنها لم تنس صداقتنا و عشرتنا، وتسكعنا وتاريخنا البوهيمي معا في الشوارع والبارات. على الرغم من تسلقها القمة و وجودها في الفوق. وحين اقتضى الأمر والسر، بحثت عني، نزلت إلي في أسفل سافلين، واختارتني من بين إناث البلد لسرير صاحب الغلالة..؟

سأتظاهر بالتصديق و لكن شيئا ما في صدري يسر لي، و يفضي إلي بأن الياقوت لا تستطيع أن تمد يدها لأحد ما دون أن تأخذ منه أضعاف ما تعطيه ...

أعرفها جيدا.

على أية حال لامجال الآن لتفكيرفي شيء سوى في طريقة أخلب بها لب صا حب الغلالة وأملك عليه وجدانه .. لم يبق على الموعد غير وقت قصير.

- كوني أنثى.. !! كوني أفعى فحيحها يوقد النار في النار.!!

من وصايا الياقوت.

حفظت درسي جيدا. أنا سعدية مسكونة « بأندلس»، سأطير عقله سوف لن يرى الزعيم غيري، سأنسيه أندلس ،وأم أندلس، وأجدادها وأهلها جميعا..

أنا سعدية وما أدراك ما سعدية ..خبرت الشوارع والبارات ..

وأما أندلس ..ما أندلس غير امرأة معجونة من الخجل، والوجل، والحياء، والكتب، والشعر، والرومانسية ، والفلسفة الفارغة والألوان، والعطر، و الحرير..

سأكونهما معا : «سعدية» في داخلها «أندلس» حبة فجل حمراء من الخارج بيضاء من الداخل.

ثم إن لي هذا الجسد الذي تعرفت عليه حديثا، حتى وإن لم تنبت بعد بيننا شجرة الألفة. سأجرب مفعوله .سأجرب ناره وفردوسه . سأفتح كنوزه ومكنوناته لأول مرة مع صاحب الغلالة. سنتلذذ معا بفواكهه الطازجة القادمة لتوها من بيروت.

انتظرني يا صاحب الغلالة. سترى. سأحول حالك وأبدل مزاجك.

سأدور الأرض بك من اليسار إلى اليمين .

سأدورها من تحتك ألف مرة في الأربع والعشرين ساعة.

سأنظف رأسك المشحون بأدران السياسة.

سأقلب ليلك رأسا على عقب .

ونهارك عقب على رأس.

سأخلي سماءك من قاطنيها.

سأكون نجمتك الفريدة .

لن تنتظر بعدي غيري، ولو كانت أندلس.

&&&&&&&&&&&&

لاشك أن سكان العمارة الآن يتساءلون عن سر هذه السيارة الفخمة السوداء الرابضة عند الباب. لن يفهموا شيئا عندما يرونني من خلف نوافذهم وشبابيكهم، أنزل مثل الليدي ديانا، أو مارلين مونرو أو الساندريللا.. أنا التي لا يجرؤون حتى على إلقاء التحية علي، ولا يتنازلون حتى للحديث إلي أو السلام علي.

سأنزل أمامهم ببطء و توأده.عنوة، أرفل في الحرير.

سيفتح لي الباب واحد من رجال البروتوكول. شاب وسيم، طويل القامة، عريض المنكبين، يدس تحت أذنه سماعة ويحمل جهاز الطالكي ويلكي، سينحني لمروري

بأناقة ثم يغلق باب السيارة خلفي بمنتهى الأدب. سأمرر أصبعي تحت النافذة، أضغط على الزر، أفتحها وأرفع بصري وأتماسك كي لا أصرخ في وجوه جميع هؤلاء وأولئك الرابضين خلف الشبابيك والنوافذ. بصوتي أكسر صمت الليل كعادتي كلما عدت في آخر السهرة، يصطحبني أحد الصحاح :

– واش ؟ ألم تصدقوا أن الغلبة للأقحاب، أقعدوا أنتم أيها الشرفاء وراء الأبواب.

لكنني عدلت عن الفكرة و ابتسمت بهدوء. لملمت الحرير الهفهاف حول جسدي. نظرت بإعجاب إلى حذائي الذي تسطع فيه النجوم. تذكرت كومة الأوراق وملف الصور التي أتت بها الياقوت إلي. تذكرت ما قرأته وعرفته عن أندلس.. إنها جد مؤدبة ومهذبة و رقيقة وخجولة و لا تنطق أبدا بالكلام الفاحش، حركاتها بميزان وسكناتها بميزان..

هدوء وارتخاء أشعر بهما بعد كأس الويسكي . هذا أيضا من وصايا الياقوت.

لمست ثديي المنتفخين تحت الثوب الحريري الشفاف. ابتسمت لما قفزا تحت أصابعي مثل أرنبين سمينين هلعين. شعرت بدبيب لذيذ أعلى الرقبة وأسفل البطن. مالت النشوة برأسي. أشرت للسائق. فانطلق الموكب..

تحيط بالسيارة دراجتان ناريتان تسهلان مرورها في هذه الساعة المزدحمة.. أتفرج على الناس من خلف زجاج النافذة الرمادي. أشباح يعودون إلى منازلهم متعبين. يبتعد الناس و السيارات عن الطريق يمينا ويسارا بينما تواصل

الدراجتان إحداث أصواتها القوية ،المنذرة ،المحذرة ،الآمرة بالابتعاد عن طريقي. ربما يظن الناس ان في السيارة الرسمية هذه ، مسؤولا كبيرا في مهمة مستعجلة . لله در هم هؤلاء المسؤولون ، كم يتعبون أنفسهم ويضحون براحتهم من أجل الشعب !!.

لا علينا.. أفكر طول الطريق إلى قصر الزعيم، أنني أخيرا أشبه العروس ولو لليلة .

كم تمنت أمي أن تراني عروسا.. طال انتظارها. تزوجت ثلاث مرات، جميعها على عجل. بدون حفل ولا طبل ولا مزمار.

بعد إجراءات البلدية نذهب مباشرة إلى أحد الفنادق، ثم إلى إحدى العواصم الأجنبية لقضاء شهر العسل. و عند العودة يكون المباركون قد نسوا ما حدث.

كانت دراستي للطب طويلة وشاقة، ولم تكن مثمرة أبدا. فبعد انتهائي من الدراسة وقف إلى جانبي أحد معارفي المخلصين، الذين لا ينكرون ملح الطعام ودفء السرير، واقترح على والي المدينة أن يساعدني في الحصول على محل لائق لفتح عيادة. كان مقر العيادة البسيطة في حي شعبي يختار سكانه الاستطباب بزيارة الأولياء الصالحين، وكاتبي الحروز، والسحارات لذلك نادرا ما يزورني أحد. لم يطل وقتي بها فأغلقت «الدكان».

لم تكن الفكرة جيدة في اختيار الطب كمهنة. هي رغبة أمي ورطتني. كانت تشاهد المسلسلات المصرية وتريد أن تصبح ابنتها «دكتورة قد الدنيا».

الأطباء الجدد في البلد يتخرجون بكثرة ولا يجدون عملا. الجامعات تفقس الأطباء. كثرت «دكاكين» الأطباء حتى أصبحت تنافس دكاكين بائعي السجائر وطاولات بائعي الكاوكاو.

تراكمت علي الديون والضرائب، فأغلقت العيادة وبقيت في البيت أستعمل أدواتي الطبية ومعرفتي من أجل معالجة أقاربي وأصدقائي ومن حين لآخر أنتظر أن يشفق علي أحد من معارفي من أجل تمريض قريب له. أتنقل إليه مقابل بعض المال.

تفاقمت أحوالي حتى أصبحت أقضي وقتي بين البيت والبار والأصدقاء. الآن حل الفرج. حل الفرج مع الياقوت. لم يخطر على بالي يوما ولم أحلم ولو خطأ أن تأتيني فرصة الطمع بلقاء الزعيم صاحب الغلالة، وربما يكون لقاء بلا نهاية ولا فراق .

- ياه ما هذه الأبهة التي أنا عليها ؟ أين كان كل هذا مخبأ ،على أي لوح كان مسطورا؟.

ها أنذي .. و البساط الأحمر هو ذا...

تخطيت البساط الأحمر. اختفى المرافقون.اختفوا في سرعة البرق. فتحت سيدة أجنبية، ذات أنف معقوف، طويلة ونحيفة جدا، بابا عملاقا ثم ساقتني في ممر طويل، مفروش بموكيت زرقاء غامقة. مزينة جدرانه باللوحات. تعرفت على صور وجوه بعض الشخصيات التاريخية و لوحة ضخمة مثيرة لمشهد أسد ينهش غزالة.

السيدة لم توجه لي أية كلمة ، تسبقني بخطوة وتشير لي بيدها دون أن تنظر إلي، وكأنها على عجلة من أمرها .

بدا لي أنها تحفظ مهمتها عن ظهر قلب تقوم بها بطريقة آلية، مثل الساقي في الخمارة. لكنني لمحت نصف ابتسامة سخرية موشومة أبديا على وجهها، كأنها كانت تسترق النظر إلي باستعلاء واضح. ربما باشمئزاز أيضا.

في المصعد سمعت أول كلمة منها. قالت لي بهدوء وهي تنظر إلى جهاز في يدها :

-أنت السيدة سعدية ؟؟

فأجبتها على الفور

- نعم سعدية.. سعدية من طرف الياقوت .

لست أدري لماذا أضفت الكلمة الأخيرة ؟ ربما عن ارتباك أوربما لأشعر بشيء من الأنس في هذا العالم الغريب.

لم تعلق المرأة ولم تنظر إلي. واصلت السير بخطى ثابتة وأنا أتبعها. رن جهازها رنينا خفيفا لا يكاد يسمع . قربت الجهاز من وجهها ،فتحت الخط وبسرعة أجابت مكلمها :

- أسلمك رقم 718×12س4

وإذ خرجنا من المصعد كان في استقبالنا رجل بقفازين ناصعي البياض وحذاء لماع، حدبة مزعجة كانت تعض على الجنب الأيسر من ظهره فتحنيه. يحمل على طرف ذراعه الأيسر منديلا، ويشير لي باليد الأخرى بمنتهى الأدب.

لم أعرف كيف وأين اختفت المرأة التي كانت معي. دق الرجل ذو الحدبة و القفازين الأبيضين بابا عاليا ذا لون يميل إلى الأحمر الغامق، ثم وبدون تردد فتح الباب لأدخل إلى صالون فخم . بعد انحناءة مؤدبة خرج وتركني وحدي.

جلست. لم أكن مطمئنة، إطلاقا.. استقر تأكدي أن هناك كاميرا ما ترصد جميع حركاتي.. مفعول كأس الويسكي الذي أخذته عشر دقائق قبل الإقلاع على حسب وصية الياقوت انتهى.. استنفذت أعصابي المشدودة كل ذرة منه.

من باب صغير في الصالون خرج باسما. يندفع بصدره إلى الأمام رافعا رأسه بحيث يقع نظره عليك من فوق.. يمشي وهو يميل بالجانب الأيمن على الأيسر وكأنه يكاد يرقص ،هي ذي طريقة مشيته المعتنة في التماهي . كنت أراه في الصور وفي التلفزيون. لم أره وجها لوجه في حياتي.. قال لي وهو يمد لي يدا مصافحا وهو يكاد يقهقه. أسنانه ناصعة البياض :

- أتريدين أن نفعلها بالعربية أم بالفرنسية ؟

فاجأني فعلا. لكنني تماسكت، لست أدري كيف حضرت البديهة عندي فأجبت :

- بالعربية طبعا. أليست هي اللغة الرسمية للبلاد!!

قلت في نفسي : بداية موفقة.. لا شك أن الياقوت ستسر بسرعة بديهتي هذه.

استدار بأناقة و فتح خزانة مركونة في الحائط، أخرج كأسين وقنينة ويسكي.

- وماذا تشربين؟ بغض النظر عن دين الدولة؟؟

ودون أن ينتظر ردي صب الويسكي في كأسين من البلور الصافي، مرصعة أطرافهما الهشة بالذهب. لم أر أجمل منهما. وبإشارة من أصبعه طلب مني أن أتبعه. كان يسير أمامي بمشيته تلك، المتميزة بانسجامها .

دخلنا غرفة بها سرير واسع، ورفوف زجاجية عليها بعض الكتب. اقتربت من واجهة مرصوفة بأشياء صغيرة ..كأنها تذكارات. وبينما أنا أتمعن فيها، أدركت أن الأشياء الصغيرة تلك ثمينة جدا، وتمثل القارات الخمس. ويبدو أنها عزيزة على صاحب الغلالة. على الأرجح هي هدايا من معارفه وأصدقائه من الملوك والرؤساء والشخصيات العالمية الشهيرة والهامة.

- هذه كنوز لا يعرف قيمتها غيري .قالها بكبر وتعال و انتفاخ.

جلت بناظري في أرجاء الغرفة فإذا بقلبي تتسارع نبضاته. لاحظت ومثلما وصفت لي الياقوت ، فوق سريره ، عند مسند الرأس بالضبط ، لوحة تعرفت عليها مما رأيته في ملف الصور التي جاءتني بها. لوحة كبيرة معلقة فوق قائمة سريره. إنها لوحة من توقيع أندلس.

رؤية لوحة أندلس أخرجتني من دهشتي ومن حلم استحليت هدهدته. أثقلت قلبي. قلت لنفسي :

- لم تأتي للمتعة يابنت. وراءك مهمة !!

تذكرت فجأة وصايا الياقوت.

دفعة واحدة أفرغت الكأس في جوفي. لم أتردد. تعريت. تجردت من ثوبي الحريري الهفهاف. أنزلته رويدا رويدا حتى قدمي. كنت على عجلة من أمري كي يرى جسدي الجديد ،المصقول «كالسجنجل «، المعطر، المهفهف، وأن يشاهد شعري المتدفق خلفي. كنت فخورة وواثقة كامل الثقة في ثديي، في فيضانهما وانتفاخهما، وبشفتي باذختي الامتلاء.

سارعت إلى فتح الخزانة على يمين السرير كما أوصتني الياقوت. أخرجت منديلا حريريا أحمر. كل هذا والزعيم صاحب الغلالة مستلقيا على السرير، في يده الكأس وينظر إلي بتمعن يتابع حركاتي ويدير عينيه حيث أمر.. عارية تماما، عقدت المنديل الحريري الأحمر حول فخذي الأيسر، وجعلت العقدة إلى الخارج، وبدأت أجول في الغرفة.

قهقه عاليا. لم أعرف كنه قهقهاته. حاولت طمأنة نفسي فقلت :

- مؤكد أنها دليل على ارتياحه أو ربما هي نار الرغبة بدأت تأخذ بمهب أحشائه. ومن يدري ربما هو عشق جنوني مباغت أحمق يتسلل إليه من حيث لا يدري؟

صفق مرتين، فدخل شاب مخنث مكحل العينين، يرتدي طقما ناصع البياض، عليه خطوط عرضية سوداء، وحول رقبته يلف منديلا من حرير أحمر، يشبه المنديل الذي حول فخذي، حذاؤه أبيض مدبب المقدمة. يدفع طاولة متحركة كبيرة بطابقين، عليها ما لذ وطاب من المأكولات كانت أصابعه جميعها مزينة بالخواتم. بسرعة وصمت

ولياقة، رتب الشاب المخنث المائدة وهو يقوم بإشارات بيديه ومؤخرته وباقي جسمه غاية في الانسجام ويردد :

- أيوووووه حالة..

وحين عزم الشاب المخنث على الخروج، نظر إلي خلسة وهو يفتح الباب، وبسرعة البرق أومأ لي بحركة من كفه كمن يرش الماء من أطراف أصابعه ، ثم رسم بسبابته وإبهامه رقم صفر 0 ووضع أصابعه على فمه وكأنه يحاول أن يحبس ضحكة ساخرة. قبل أن يختفي ألقى برأسه إلي الوراء، ناظرا إلي من خلف أهدابه المكحلة بإتقان، زاما شفتيه ،ثم اختفى وأغلق الباب. فهمت أنه يريد أن يقول لي :

-لا تنتظري منه الحرائق يا مسكينة !!

علق صاحب الغلالة ساخرا بعد خروج الشاب المخنث :

- هذا أشطر الغلمان قاطبة منذ ولادة التاريخ ، سميته «فيليمو». ألحق ملحوظته بضحكة صغيرة وهزة من كتفيه.

ابتسمت مجاملة.

لم تكن شهية الزعيم للطعام شرهة. بلع بعض الأقراص ..شرب كثيرا، ثم استلقى بعدم اكتراث كلي. سلمني نفسه. كان عاريا على السرير بطنه المنتفخ يتدلى، وتظهر آثار بقايا عمليات جراحية جادة.

شعرت بالشفقة نحوه سرعان ما تبددت، واستولى علي الارتباك وشيء من الخوف.

- أريني ماذا تستطيعين فعله ؟ ألست صديقة الياقوت وابنة حارتها وكبرتو مع بعض.. ياالله وريني شطارتك ..؟ !

جلست على طرف السرير تملؤني ثقة عظمى بأنوثتي الجديدة الفائضة. وأنا أداعب ثديي الجديدين المنتفخين الكبيرين، كنت ألوي عنقي. أطوح بشعري في كل الاتجاهات وأنظر إليه بغنج لكي يتفطن إلى جمال وجهي وجسدي وفتنة شفاهي.

كنت واثقة، بما لا يدع للشك ثقبا واحدا يتسرب منه إلي، أن الرغبة ستعصر عروقه في الحين وتشعل النار في خلاياه و تسحق أعضاءه التناسلية إن لم تفجرها من شدة الضغط، وتضيق عليه أنفاسه، تحبسها، فيشتد لهاثه، ويمتد صراخه حتى يسمعه القريب والبعيد.. مسألة دقائق معدودات لا غير..لاغير. . !!

حدق في مليا ببرودة، كنت ما أزال أتلوى مثل أفعى لا تكتم الفحيح - من وصايا الياقوت- ثم قال بصوت مقعر :

- قربي هنا.. قربي..

اقتربت أكثر وأنا أحاول أن أبدو مغرية. التقط بأطراف أصابعه ثديي. كان ينظر إليه بعينين جاحظتين وفم نصف مفتوح.. قلت في نفسي :

- «نجحت اللعبة «. نجحت اللعبة يا الياقوت.. سيلتقطه في فمه وسيغيب في سكرة عشق تشبه سكرة الموت .الوداع يا أندلس. !!

تفرس في وجهي بينما ملامحه تحتد شيئا فشيئا، ثم صرخ :

- هذا فالصو . غش ..هذا سيليكون ؟ !!

قال هذا وهو يجس الثدي بأصابعه، يبعجه و يلويه، ويطويه ويفرده، يرفعه ، ويخفضه وكأنه عجينة طينية لعلاج العصاب. فجأة انقلب صراخه إلى استغراق عجيب في الضحك. حتى استلقى على السرير بينما بطنه يهتز ويهتز. أضاف وهو ينهي ضحكته بصعوبة بالغة :

- ماعليهش ماعليهش !!

كأنه ب «ماعليهشه « تلك ، أراد أن يذلني ، أن يصغرني في عين نفسي، وفعلا أصاب هدفه.

أحسست فجأة بانكسار وانكماش عجيبين.. وكأنني بالون شك بإبرة.

كيف استطاع في دقائق معدودة أن يفقدني كل ذاك الامتلاء الذي كنت أشعر به، مزهوة بقدرتي على المستحيل كيف ؟؟ !!

شعرت بحزن دفين وقلق. فكرت في الياقوت ومقامرتها بي، والرهانات التي وضعتها في إمكانياتي الأنثوية الأسطورية. فكرت في أندلس وهي على بعد خطوة منه.

يبدو أن مهمتي ليست سهلة أبدا، فالزعيم لا يحرك ساكنا، وإيقاظ عضوه يبدو من المستحيلات السبع..

مددت يدي تحت بطنه.. أين هو أولا ؟ لا أرى رأسه. أمسكت به كمن يمسك بفأر فك لتوه من مصيدة. ملتوي الرأس مهروس الرقبة. استسررت نفسي :

- والله البحث والتنقيب عنه أصعب بكثير من البحث والتنقيب عن بئر بترول في صحراء البلد.. عليك اللعنة يا الياقوت واللعنة على كرسيك وصفارتك واللعنة على غريمتك أندلس واللعنة على عيادة أبو عقل ومن فيها واللعنة كل اللعنة على الساعة التي عرفتك فيها .

كيف يضحك مني هذا الوغد. كيف يذلني هكذا. كيف بسرعة البرق يطفئ ابتهاجي وكأنه ألقى بسطل ماء بارد علي فجأة.

أهو أحسن حال مني ؟

ألا يرى ما هو عليه من حال ؟ أم أن الجمل يرى حدبة أخيه فيضحك عليه منها و لا يرى حدبته ؟.

كان عليه- والأموال ليس ما ينقص في البلد - أن يشتري واحدا جديدا، يلصقونه له بدل هذا الشيء الذي لا يصلح حتى أن يوضع في رأس صنارة صيد. ستضحك منه الأسماك ملء فيها. ستجتمع أسراب سمك السردين حول الصنارة تتلوى من الضحك عليه..

ستضحك من عجزه الأسماك و الأمم..

هل خفي عنه أن لم يعد في العالم شيء لا يشترى ولا يباع .

ماذا يفعل صاحب الغلالة و«حجابه» بالمال الغزير الذي ما فتئ يفيض هذه السنوات من بترول الله، فقد ارتفع سعره كما لم يرتفع من قبل. الناس جميعهم في الأسواق والطرقات والطاكسيات و الجرائد كلها والمحطات التلفزيونية العالمية والانترنيت وحتى في البار الذي تعودت عليه وتعود علي، يتحدثون عن ذلك.

يقولون إن المال كثر إلا أن الفقر ازداد أكثر. يقولون إن النافذين من «حُجابه» وحدهم ازدادوا غنى بينما الشعب ازداد فقرا لى فقر. غالبا ما أرى وأنا عائدة من البار مع أول خيوط الفجر إلى مقر سكناي ، أرى نساء ورجالا وأطفالا يقلبون في حاويات الزبالة قبل أن تمر حافلات الرفع، ليسدوا جوعهم وجوع أطفالهم.

الخير كثير والحمد لله ..

ألا يخجل؟

ألا يخجل وله هكذا ذكر؟

والله لو كنت رجلا وعندي مثل هذه الفولة اليابسة.. والله لانتحرت.

كان عليه أن يشتري واحدا بدل أن يجلس أمامي هكذا، مثل فيل عجوز وهو من هو.. كان عليه أن يترك حاشيته يتدبرون أمره .. أو على الياقوت أن تتدبره له وتعالج المشكلة بشكل وصفة نهائيين. فبدل أن تحضر له كل مرة واحدة من عاهرات البلد، تتفرج على عاهته، عليها أن تفصل في الأمر بشكل نهائي. لماذا لم تبحث عن عيادة «أبو جهل» !! ربما وجدوا له ضالته واستراح؟

لكنني واثقة من أن الياقوت ستكون أقل راحة إن هو أصبح في فحولة جامحة، سوف لن يحتاج إليها في البحث عمن تستر عليه ولا تفشي سره. ستقلق أكثر من استقلاليته ولن تهنأ كما هي الآن بالصفارة والكرسي .. إنها في حقيقة الأمر تقبض على صاحب الغلالة من» اليد « التي توجعه. بل من البنصر الذي يقرحه.

سأقترح عليه. سأرد له الصفعة وأمري لله ..ابن الكلب..

لم يفقدني الغضب ابتسامتي كانت ملتصقة مثل قناع على أساريري، تشجعت ثم قلت بصوت مهموس يخرج من بين الأنف والحلق وطبلة الأذن – من وصايا الياقوت – :

– سيدي الزعيم صاحب الغلالة. !!

– نعم، نطقت أخيرا وسمعناك، قولي واش حبيتي.

– نصرك الله وأبقاك لنا ذخرا !!

هل أقترح عليه ؟ وإذا فعلت هل سيغضب مني.. وربما يؤذيني؟ سأخبره .. سأخبره وليكن ما يكون !!

ترددت لحظات كان لا يزال ممددا على السرير الأحمر، ينظر إلي وهو يمطط ذكره الميت بيده اليسرى، بينما الكأس نصف المليئة في يده اليمنى. كانت نظراته تستدرجني للكلام بل تستعجلني إليه، بل تأمرني أمرا عسكريا حاسما. قلت في نفسي لا مفر سأتكلم. سأقول كل شيء دفعة واحدة. ثم أنتظر ردة فعله سأقول وأمري لله :

– يا صاحب الغلالة ! نحن نحتاجك.

ماذا كنا سنفعله من دونك.

أنت الركائز التي تحمل السموات فوق رؤوسنا.

لولاك لسقطت السموات .. !

- هذا رأيك أنت ؟

-لا ..هذا رأي الأمة قاطبة !

بدأت أساريره تنفرج. هي فرصتي كي أرد له الصاع صاعين.

- لماذا لا تقتني واحدا .. واحدا آخر في مستوى مقامك العالي وجبروتك وقوتك.. أقترح عليك اقتناء واحد آخر بدل هذا (كنت أشير بيدي إلى وسطه). في عصرنا كل شيء ممكن يا صاحب الغلالة.. الطب مهنتي ولكنك أعلم مني في كل شيء. ما يحدث من معجزات طبية .. خذ بيروت مثلا وباريس ..وحتى هنا ..أعضاء الذكور سلعة متوفرة ووفيرة في البلاد.. ومال البلاد الكثير الغزير مالكم وحلالكم، تتصرفون به كما تشاءون وتشتهون ،وتشترون به حتى حليب الطير لو اشتهيتموه ..

تستطيع غلالتكم أن تشتروا واحد ا آخر. صحيحا ،جديدا ، فحلا قائما ،مستقيما ،قويا، بكل معداته الإضافية وامتيازاته ..

..و « الغالي يطلب الرخيص» يا سيدي !!

.. أنت غالي يا سيدي..ثم إن ما تطلبه وتحتاجه لم يعد ذا قيمة في البلد. فهو لكثرته وفائضه يرمى ويضيع في البحر بالعشرات كل يوم.

بلادك ،ياسيدي، مليئة بالشباب، شباب جميلين شداد مليئين بالحياة لم يكملوا الدراسة. حتى وإن أكملوها فهم يحملون شهادات لا معنى لها كمن يحمل شيكا دون رصيد. أنت أدرى مني بأن سياسة التعليم و التثقيف والتسلية غير ناجعة في البلاد . لاشيء يغري يا سيدي.. سمعت أن المدرسة لا تغرس التفاؤل مثل الأول، لا تزرع الحياة، ولا ترسم الأمل. تراوح بين الخوف من عذاب القبر وعذاب الربق، بين الترهيب و مقت الحياة ..

ضاق الشبان ذرعا بأوضاعهم المزرية وغموض مستقبلهم يا سيدي .. يغامرون للذهاب بعيدا عن البلد، عن الجوع وعن البطالة. يلقون بأجسامهم الشابة المصقولة العامرة بالأحلام والرغبات في البحر. «يحرقون «على متن زوارق يسمونها زوارق الموت.. عشرات من الشبان كل يوم يأكلهم البحر يا سيدي.. في الأسبوع الماضي فقط ،عثر رجال الحماية المدنية على زجاجة بلاستيكية بداخلها رسالة مكتوبة بالدم، على ورق علبة تبغ، من شاب ركب زورق الموت، كتب إلى أمه وأبيه يعتذر منهما لما سيسببه لهما من حزن عند موته و فقدانه. يبدو أنه، يا سيدي، عندما فاجأ الموج العاتي الزورق وسط البحر، سارع الشاب إلى إغلاق الزجاجة بإحكام وألقى برسالته في البحر.. قرأ رجال الحماية المدنية الرسالة أمام الملإ فبكى الناس من الحرقة والغضب.. يقول الشباب يا سيدي :

- الحرقة ولا الحقرة ..كرطونا في روما ولا فيلا في الحومة. !!

ويقولون أيضا :

- يأكلنا سمك البحر خير من أن تأكلنا البطالة والإهمال و اللاجدوى.. !!

رفعت شفته السفلى جارتها العليا. أشار لي بيده في ما يعني «غيري الموضوع»، ثم نزل من السرير عاريا. انحنى ليملأ كأسه. كان يبدو من القفا مثل فيل هرم. تفطنت إلى أنني خرجت عن الموضوع ياإلهي ما الذي دفعني إلى هذا؟

واصلت، بينما كان يترنح وهو يصعد إلى السرير من جديد.. انتبهت إلى حدة صوتي فغيرت نبرته. صار يبدو هادئا مهموسا يعبر مابين الأنف والحلق ..

- أردت، يا سيدي، القول إن مصائب قوم عند قوم فوائد .. ألا يقول المثل السائر عندنا « السلطان بالتاج ويحتاج»..! غلالتكم لا تحتاجون الشيء الكثير.. لا يخصكم شيء يا سيدي من أجل كمالكم. لا تنقصكم الرجولة إلا منه، فقط منه، خدعكم ابن الكلب في وسطكم وفي وسط الطريق..

كنت أتكلم بحرارة وجدية لا مثيل لهما لم أتعود عليهما بينما بصري منصب على وسط الزعيم، مركزا على ذكره الملوي.

- يا سيدي أسقطه من سدتك.. إنه تركك.. خدعك.. تخلى عنك.. أخجلك وحشمك أمام النسوان وأشباه النسوة.. دبر له انقلابا جذريا ونصب مكانه آخر. واحدا آخر ينتصب مثل نصب تذكاري جذعه في جذعك و رأسه في السماء..

الطب متقدم اليوم كما تعلم يا سيدي، وهناك عمليات تجميل وأخرى لزرع أعضاء . عمليات مذهلة خارقة، غير معقولة تحدث في عصرنا.. ما ضرك لو أنك نصبت مكان هذا المرتخي واحدا جديدا يطيعك ويأتمر بأوامرك؟ ليس من الطبيعي يا سيدي أن يركن هذا المخلوق في وسطك، ثم لا يأتمر بأمرك، ولا يطيعك.. طاعتك سيف على الرقاب يا سيدي، ومن لا يطيعك أقطع رأسه، (كنت أفكر في رأس الفأر المدلى وعنقه المهروسة)..

.. أقطع رأسه يا سيدي . أنت لست أقل شئنا من هارون الرشيد ، ولا من ديغول ، ولا حتى من هتلر.. حاشا لله ..

..لست أقل شأنا من نظرائك ووزرائك وسفرائك . أترضى أن يكون لرئيس حكومتك أو وزيرك أو سفير لك ذكر أعظم وأقوى من ذكرك؟

ثم الأفدح يا سيدي أترضى أن يكون للزعماء العرب والأفارقة ذكور أضخم وأعتى من ذكرك رغم أن مساحة بلدانهم أصغر أربع مرات أو يزيد من مساحة بلدك؟ لا والله يا سيدي ؟

رفعت صوتي قليلا بدا حارا وجادا ومقنعا :

- لالا لا.. لا يا زعيمنا يا صاحب الغلالة، يا رافع السموات كي لا تسقط فوق رؤوسنا. أنا واحدة من الشعب الذي انتخب عليك ب 99 فاصلة 99 في المئة ولا أرضى لك ذكرا مثل هذا فيك.. لست أقل شأنا أبدا من أعظم سلطان في التاريخ. لولا هذا.. فقط هذا. (اقتربت منه دون أن أتوقف عن الكلام، وأنا أحرك رأسي يمنة ويسرة من أسف

وضعت سبابتي فوق عضوه بالضبط ثم بدأت أدير الدودة الدقيقة بأصبعي في كل اتجاه) ..أقطع رأسه يا سيدي، انقلب عليه ابن الكلب، أطح به ، ونصب تحتك آخر..

كان ينظر إلي صامتا، ببرودة ميت. بنظرة فارغة، جليدية جامدة. ارتعدت فرائصي .. جمعت قواي وأنا أتظاهر بإعادة ترتيب عقدة المنديل الحريري الأحمر حول فخذي الأيسر، لأحاول تغيير إيقاع صوتي الذي أصبحت نبرته حادة :

- ما رأيك يا صاحب الغلالة ؟؟ أردفت بصوت معسول مهموس.

بعد ثوان كأنها قرون.. لحظات من حديد صدئ. قلب أثناءها النظر بيني وبين وسطه. تسارعت نبضات قلبي، كنت خائفة. نطق أخيرا :

- اسمعي ..اسمعي يا ؟؟؟

- سعدية ، يا سيدي ، سعدية صاحبة الياقوت..

- إسمعي يا سعدية..لتعلمي أولا أن الفكرة ليست جديدة بالنسبة إلي فجميع اللواتي أحضرتهن لي الياقوت وغير الياقوت يقلن نفس الشيء. إن جهرا أو سرا. وعلى الرغم من أنني أكظم كل مرة غيظي إلا أنني لست ضد الفكرة ولكنني لا أثق في البضاعة المحلية.. لا أريد السلعة المحلية ..

ثم بصوت تقطعه الضحكات أضاف :

- ولو كنت استقريت على السلعة المحلية لأمرت أن يضاف في البطاقة الشخصية لكل مواطن ذكر في جمهوريتي الفاضلة صورة لعضوه بدل صورة وجهه..ها ها ها !!

(صمت قليلا ثم أضاف) :

-أنا أفضل ذكرا مستوردا.. الفرنسيون عرضوا علي أكثر من نوع .. آخر عرض كان ذكرا لا بأس به، بزغب أشقر، و من قبل سبق و أن عرض علي واحد لشاب من أصل مغاربي ذي جنسية فرنسية من ثلاثة أجيال..

أنا أتعامل بحذر مع الفرنسيين، هم أصدقائي في الخفاء بحذر، وخصومي في الجلاء بحذر. تبيان العداء تجاههم ورقة من أوراق الضغط والضحك على ذقون العامة. إلا أنني من الناحية الاستراتيجية أخشى تاريخ فرنسا الاستعماري وسياستها المراوغة، أعرف جيدا فحوى سياسة اليد الممدودة لفرنسا... لاشك، فالطب والعلاج والبحوث الصيدلانية متطورة جدا عندهم إلا أنه لا أحد يعلم، ربما بعد أن تبيعني عضوا وتركبه وتثبته وسطي يأتي يوم فتطالب به رسميا، في أية وعكة دبلوماسية قد تحدث بين بلدينا، وربما التجأت إلى الأمم المتحدة لاسترجاعه رسميا، ولن يكون حظ دبلوماسيتنا كبيرا، على الرغم من إمكانياتي المعروفة في المراوغة السياسية لأن فرنسا تملك حق الفيتو وهذه ورطة حقيقية. وفي كل الحالات لن تكون فرنسا، إن هي طلبت استرجاعه، من الخاسرين..

-..... ؟

شخصيا أفضل التعامل مع ألمانيا.. امتلاك إير من العرق الآري ليس بالشيء الهين.. على الأقل يكون عضوك، عضوا كامل العضوية في بلد الفلسفة والفن والأدب..

تشعر بالقرابة الدموية والمنوية مع فان غوغ وماركس وانغلز وفاغنر..

- وهتلر..

أردفت وقد عبرت ذهني صورة أندلس فكرت لو أنها هنا لكانت أبهرته بأسماء فلاسفة آخرين .ولكنه تشاغل بالشرب ولم يعلق، بل واصل كلامه وكأنني لا أوجد أو كأنما على رأسي طاقية خفاء.

- .. حلفائي وأصدقائي الألمان في الحقيقة لم يقصروا أبدا، جهودهم قائمة على قدم وساق، يدرسون المسألة بجدية وتقنية عالية، إلى درجة أنهم فكروا حتى في إمكانية إنجابي لطفل أو اثنين ليس لدي سوى بنت واحدة لضمان بقائي المادي والمعنوي، وربما ضمان استمرارية الحكم الراشد الذي لم يسبقني أحد إليه في البلد أو في غير البلد. وهو الأمر الذي لم أفكر فيه من قبل..إذا كان الأمر كذلك فسأتزوج ثانية.

- خبر سار ياصاحب الغلالة.. هل ستتزوج ألمانية ؟؟

- هل لعبت الخمر برأسك الصغير يا سعدية ؟ لن أتزوج سوى امرأة تختصر النساء جميعا اسمها أندلس..

- أندلس ؟

- يبدو من الأعراض البادية علي أنني أحبها. هبلتني ..هبلتني .. أندلس امرأة لا تشبهها أخرى ثم هي فنانة رقيقة وهذه اللوحة الرائعة التي ترينها هنا فوق السرير هي لها.

- وهل سترضى؟ هل ستقبل؟ هل كلمتها في الموضوع؟

كان صوتي مرتجفا متقطعا. خوف وقلق سيطرا علي كلية. كان وجه الياقوت يتبين لي متذمرا، ساخطا علي.

- لم تولد بعد بين النساء من ترفض طلبي.. قال ذلك بنبرة قاسية وهو يهم بارتداء سرواله ثم باقي ثيابه ، بينما كنت مشتتة الذهن أفكر في شتى الأشياء دفعة واحدة. كان وجه الياقوت يحاصرني. الياقوت بالأخص.. ماذا سأقول لها؟؟

لبست ثيابي بدوري بعد أن فككت المنديل الأحمر من حول فخذي الأيسر وكنت في ذروة الارتباك فاجأني بقول يشبه الأمر :

- اسمعي يا سعدية لكي أجازيك على هذه السهرة، سأبعثك للحج هذا الموسم و على حسابي و من مالي الخاص .ستحجين وسأناديك من اللحظة «الحاجة سعدية».

صفق صاحب الغلالة مرتين، ثم أشار لي نحو الباب. فتحته فإذا بالرجل ذاته بقفازه الأبيض يرافقني إلى الباب الخارجي ويسلمني للطريق، ثم وكأنني سمعته يتمتم مودعا لي :

-!! بالسلامة الحاجة سعدية

13

أنا أندلس، بنت الابن الوحيد للالة أندلس، سماني أبي على أمه.. ولست غير ذلك.

جئت مثل شجرة على حافة هاوية. نبتت على حدود حقل ملغوم. أنا ابنة جغرافيتين نائيتين، لكنهما متجاورتان، قدرهما شاء لهما أن تتلامس أطرافهما في البر والبحر، ويتقاسمان سماء تحنو عليهما معا وتهدهدهما معا بألوانها صباحا وبسحر مهرجانات الضوء وسلالم النجوم ليلا.. لكن هناك من يروق له أن يفرق كي يسود فيلهيهما كي لا يأبها للكنوز التي تجمعهما. لا تهدأ نار العداوة بينهما نار تتعبني وتمزقني ..

أبي من عائلة عريقة ذات أصول وفصول في الجاه تارة والفكر والشعر والموسيقى تارة أخرى، في مدينة تحت كل حجر فيها كتاب او أغنية أو خبر، مدينة عريقة بتاريخها ومجدها وتراثها ونبل وشجاعة أهلها، أما أمي فقد أتت جراء عناق محموم للشمس بالرمل في أقصى الجنوب، من أسرة شريفة من سلالة سيدي امحند بن بوزيان.

نزل شاب، وسيم، أنيق، مثقف يحفظ القرآن ويتكلم اللغة الفرنسية بمعرفة وإتقان في مناطقهم الهادئة النائية.

جاء للاحتماء من مطاردة الجيش الفرنسي له، بعد أن اتهم بتحريض زملائه الطلبة على التمرد ضد المحتوى الاستعماري للنصوص والبرامج المدرسية، وبعد أن وقف يوما علانية في وجه المدرس ليقول :

– إنني أرفض يا سيدي أن تلقنونا بأن أجدادنا هم »الغولوا« les gaulois إنها مغالطة تاريخية، بينما نحن الجزائريين أمازيغ وعرب مسلمون.

شاع في المدينة العريقة خبر البحث عن الفتى الغاضب المتذمر ابن السي العربي الذي قتله المستعمر. لم يتردد كبير أعمامه لحظة في إيجاد حيلة وطريقة لإنقاذه من موت محقق، فهربه إلى أبعد مكان، ساقه إلى حيث لا يمكن أن يطاله الأذى. فالأمر في غاية الخطورة.

احتضن أهل الصحراء الطيبون الشاب اليافع، تعاطفوا معه وساندوه فالتحق بالقسم الوحيد في المدرسة الوحيدة النائية يدرس أطفالهم.

ذات ظهيرة، بينما كان يشرح درسه، مرت.!

هي. ..مرت. !

لوت عنق الشاب الغريب الوسيم المؤدب والتصقت عيناه بها عبر النافذة المفتوحة على الحر إلى الأبد. تلك أمي. مرت برفقة صويحباتها يتضاحكن غير عابئات. كان شعرها الطويل جدا، والغزيرجدا يتبعها في ضفيرة أنيقة، علامتها البارزة التي وشمتها في قلبه.

سكنته يومها، وحين سأل عنها بكثير من الحذر والسرية، قيل له إنها ابنة زعيم المنطقة الروحي وحكيمها وحفيد وليها الصالح.

لم يتردد في الذهاب إليه وطلب يدها. لم ير والدها عيبا في هذا الشاب الغريب المثقف الحافظ لكلام الله. وقال ليقنع نفسه قبل أن يقنع مريديه وأتباعه و أعيان المنطقة :

- ثم ماذا.. أي فرق نحن إخوة. لا شيء غير الوهم .لا يفرقنا شيء غير الوهم. ثم زغردت النساء..

ذلك هو أبي، وتلك هي أمي، وذلك هو جدي..ثقيلة هي الحمولة و متعب أن تتحمل هذا الإرث كله وحدك.

أنا أندلس وجدتي لالة أندلس هي من ربتني بعدما انفصل أبي عن أمي، انفصلا قبل أن أجيء إلى هذا العالم. لم يكونا قطعا في انتظاري. أخبرتني لا لة أندلس أن أبي لم يحب امرأة أخرى سوى أمي. أجبرته إحدى عماته على الطلاق والزواج من ابنتها التي عشقته حتى الجنون رأت أنها الأحق به أليس ابن أخيها فهددته إن هولم يفعل فستخبرالفرنسيين عن مكانه. لم يدم زواجه من ابنتها سوى بضعة أشهر، وحين حاول العودة إلى أمي من جديد أخبره أبوها أنه عاد متأخرا فلم يتمالك عن البكاء بين يديه :

- اسمع ياابني ..لايحب الحب أن ينظر كل إلى ناحية بل ينتصر حين يتطلع الحبيبان في نفس الاتجاه .. ضاعت فرصتك زوجتها من رجل يعتني بها أكثر منك !!

لم يرجع الشاب بعد الحادثة إلى أهله بل قرر الالتحاق بصفوف الثورة ،بعد أن رتب كل الاتصالات والإجراءات السرية لذلك .

كم أكدت جدتي لالة أندلس أمام الجميع، وكلامها لا يقبل الشك، أن أمي امرأة ليست كبقية النساء فلها شيء ما سري يختبئ فيها (تفرقع لالة أندلس أصابعها) يجعلها مثل القمر والنساء كواكب. وتضيف أن أمي وأبي بعد انفصالهما القسري، المبكر ،المفاجئ، الطاعن في الألم، عاشا بقية عمرهما حزينين يقتاتان على عشب ذكرياتهما الذي لم يجف أبدا. كل منهما يحلم بالآخر. لم تعش أمي طويلا بعد ذلك، وغرق أبي في الزواج المتكرر لا يفسره سوى بحثه المتواصل عن ملامح محبوبته الضائعة في بقية النساء، علها تتمثل له من جديد.

من أين جاءت لالة أندلس بهذا اليقين ؟ لا أحد يعلم، ولكن لا أحد يشك في قولها الحسم.

أغلب الناس يرحلون
حاملين أسرارهم إلى الأبد.

أنا أندلس ابنة تلك المحبوبة الضائعة . أليس من حقي أن أرث عنها قليلا من سحريتها النادرة ، التي مافتئت جدتي لالة أندلس تتحدث عنها كلما أتى أحد وذكر اسمها ؟ وما فتئت تذكرني بأوصافها في جسدي مرة لتخفضني لأوصاف لم تكن بها وأخرى لترفعني لأوصاف كانت بها.

لا أنكر أن الطبيعة كانت سخية معي.

أكتشف مع كل سنة جديدة تمر أنني أكثر حظا من قريناتي في جذب الأبصار، وجلب اهتمام المعجبين من الرجال، وإيقاد غيرة النساء. إنني مثل عمتي زهية «عندي الزهر يشقف الحجر» مثلما تقول عماتي. لا أجلس في مكان إلا وأشعر أني سيدته. هو أمر يعجبني ويسليني.

ما أكثرهم .. يطلبون ودي وقربي . وإذا كان رفضي في البدء عن تمنع ودلال وعدم مجاراتهم وقبول طلبهم وانتظار لقاء فارسي المتخيل، أوربما بسبب ندب ظل عالقا بي منذ أن كنت جنينا في بطن

أمي وحادثة فراقها مع أبي، فإنني اليوم أصبحت بعد «أمازيغ « أرفض طلباتهم في خطب ودي بسبب سري الدفين، سري أن قلبي دق لرجل ليس كالرجال. دق له وحده على حين غرة و لم يدق سوى لواحد وحيد، يهتف له وبه. لم يكتب لنا البقاء طويلا معا ولكنني سأنتظره. أشعر أنه رجلي وفارسي و هو شاعري و حبيبي..

لست أدري كيف أصبحت بين عشية وضحاها ممتلئة به، أرعى صورة وجهه في ذاكرتي وأعيد شريط لقاءاتنا القليلة الصاخبة في صمت، على شرفة مقهى بحري كنا نرتاده فنتحدث عن كل شيء.

لم يكن يعجب أمازيغ العالم الذي نحن فيه، تغيب فيه الحرية و تنتفي منه العدالة ويسوده الطغيان. لست أدري من أين كان يستمد قوة إيمانه المتجذر في التغييرفيرفع يده

قائلا : إن لم يعجبك العالم الذي أنت فيه فساهم إذن في تغييره.

أخبرني أمازيغ أنه قيادي في حزب غير معترف به من طرف النظام، أجبر على أن ينشط في السر .ويعتبر العمل النقابي والدفاع عن العمال والطبقة العاملة و عن الفقراء من الأولويات التي سطرها ونذر لها حياته. لم تكن السياسة والعمل النقابي يسلبه بهجة الالتفات إلى مواطن الفتنة في الحياة، بل كان يحب الفن والأدب والفلسفة، كان يردد دوما مقولة «جورجيا أوكيفي» :

لوأنك التقطت زهرة صغيرة بين أصابعك ونظرت إليها بتمعن ستصبح عالم حياتك كله للحظة !!.

جميل ودافئ صوت أمازيغ، ولأنه يعرف أنه رخيم وآسر، لا يتردد أبدا أن يرفعه ليؤدي لي بعضا من أغاني الشيخ إمام أو يلقي علي أكثر من مرة أشعار محند أو محند غير عابئ بمن حولنا ونحن نتمشي في المساء على جبهة البحر. لابد أن أشجار النخيل تتذكره مثلي.

ما زلت أذكر حين وقف في المقهى ناصبا قامته الجميلة، وتحت نظراتي الملهوفة العاشقة، رفع صوته بالغناء لمقطع من قصيدة أبي القاسم الشابي وهو يقلد صوت أم كلثوم :

وما نيل المطالب بالتمني و لكن تؤخذ الدنيا غلابا

يشبه أمازيغ أبطال الروايات العالمية الذين يجمعون بين الجمال والجلال والشجاعة والحكمة والطيبة والشهامة. في الجلسات القليلة المعدودة التي منت بها علينا صدفة

الحياة الجميلة ، اكتشفت ثقافته العميقة في الفنون الجميلة والشعر. كثيرا ما قرأ لي أمازيغ مقاطع من قصائد جميلة. يختار منحاها فلسفيا بالأمازيغية، ويحبه رقيقا يفضح هشاشته بالعربية، ويفضل قصائد قصصية بالفرنسية. هو ذاك أمازيغ ..أمازيغي أنا، لا يشبهه أحد من طالبي ودي الكثيرين. لهذا وذاك ولشيء آخر مبهم لست أقدر على فهمه أو وصفه أو تحليله، أحببته ، نعم أحبه.

يبهجني أمازيغ، كل يوم يتغلغل في نفسي خطوة أخرى ثابتة. أنتظر لقاءه بلهفة وحين يقترب تجن نار صدري حتى لتكاد تلتهم الثياب علي. تمتلئ به رئتاي، أشعر أنه يموسق خطاي حين أسير، وفرشاتي وألواني حين أرسم وكلماتي حين أنطق ، ويرصع ليلي بنجوم لم يكتشفها الفلكيون بعد. يحرك ريش أجنحتي حين أحلم .

ذات نهار مشع، ركع أمازيغ بين يدي، في حركة مسرحية بينما كنا نجلس في المقهى البحري، قبل موعد سفره بيوم للمشاركة في ملتقى حول الملكية الخاصة و حقوق الطبقة العاملة في موسكو. قال لي :

- أنا أحبك يا أندلس هل تقبلين أن تكوني زوجتي وأما لطفلي القادمين ؟

ضحكت دامعة العينين وأنا أرد بالإيجاب بحركة من رأسي . فجأة قفز أمازيغ صاعدا على الكرسي وكأنه يخطب في جمع غفير :

- أيها البح، يا عجائز النخل الحكيمة، أيها الحاضرون في هذا المقهى .. اشهدوا على هذه اللحظة التاريخية. قبلت أندلس أن تكون زوجتي وأم طفلي القادمين !!

لم يكن زبائن المقهى كثيرين يومئذ، ولكنني فوجئت بهم يصفقون بحرارة وبابتسامات تنم عن تواطؤ جميل. وتوالوا إلى مائدتنا الصغيرة يباركون لنا الحدث.

في آخر المساء ودعني أمازيغ على أمل أن نلتقي حال عودته من موسكو بعد أسبوع. كان يبدو سعيدا ومنتصرا.

سافر أمازيغ لكنه لم يعد..

لا يعرف أحد من أهله وأصدقائه شيئا عنه.

مالذي حدث لأمازيغ ..هل سافر فعلا أم لم يغادر؟؟

مازال اللغز قائما !! مازالت والدة أمازيغ ترفع صورته على باب الولاية كل صباح يوم جمعة و بين يديها لافتة مكتوب عليها باعتناء بالخط العربي والفرنسي والأمازيغي جملة واحدة لم تغيرها ولم تعدل فيها حرفا :

- أريد ولدي ..أعيدوا إلي ولدي !!

كان علي منذ ذلك اليوم أن أرعى العهد كما يجب وأن أعتني بطفلينا المفترضين القادمين كما يجب. أن أقص عليهما كل ليلة مفصلا ملونا من مفاصل علاقتنا الصاخبة الهادئة.

سنوات عديدة مرت، وأحداث كثيرة توالت، ولكن أمازيغ مازال يسكنني. مازال سامق الحضور في وجودي بوسامته و برقته، وبشهامته وبطوباويته في الحلم بعالم تسود فيه

المساواة بين الناس ، بالدفاع عن حقوق المظلومين من العمال و الفقراء. مازال أمازيغ يملك مشاعري كلها برجولته وإنسانيته واندفاعه الحالم، وكأنه فارس وسيم آت من زمن الفروسية، يستميت من أجل تثبيت حق الآخرين. لم يترك مكانا لغيره في قلبي و في يومياتي.

لم أسرد قصتي على أحد. تركتها لي وحدي، بعسلها و علقمها. لا يعرف تفاصيلها وحواشيها أحد غير البحر وبعض غرباء كانوا يجلسون في ذاك المقهى البحري الذي كنا نرتاده، البحر وبعض مجهولين شهود على حبنا الكبير الهادئ وعلى طفلينا القادمين.

سنوات عديدة مرت. طويلة نهاراتها وممتدة في الوقت مثل الظلال لياليها . كبرت، وخبرت، و سافرت كثيرا ورسمت كثيرا ، وتقاطعت طريقي مع رجال رائعين ودودين، يصرون على الاقتراب مني وربما يبالغون فيه، لكنني لم أفكر في ربط مصيري بمصير واحد منهم.

لم يظل في قلبي مكان فارغ لساكن جديد. كنت أحس أن أمازيغ يرفرف حولي، مبستما يمد لي يده، وأنه سيعود ذات يوم . أشعر بأنفاسه تحرك الزغب الغافي فوق جلدي. أنام، أغمض عيني بينما أمازيغ يسهر عند وسادتي. في الصباح كان أمازيغ أول من يبتسم لي ويلقي علي وعلى طفلي القادمين تحية الصباح. ويخبرنا أنه يحبنا ثم يتمدد فوق ضوء نهاري وعلى لوحاتي.

ذلك يشعرني بالدفء وبالانتصار على الوحدة، وبأن النهار يرفع أشرعته لي.. لي ولطفلي المفترضين.

كم كنت أتذكر جدتي لالة أندلس وهي تنشر بهجتها كل صباح في البيت :

- قولوا خير وسلام.. شفت البارح سيدي العربي في المنام!. وأردد بدوري :

- قولوا خير وسلام .. شفت حبيبي أمازيغ في المنام !.

هل أحمل اسمك عن جدارة يا لالة أندلس أم لأننا نتشابه في قدر العشق.

14

أقدار العشق رحيل لالة أندلس

..وكانت شمعتان، تتهادى الشعلتان منهما بشموخ فوق الشمعدان النحاسي العتيق الذي ورثه أندلس عن جدتها.. كأنما سمعت صوت جدتها لالة أندلس يرتدي بحته كسرج على فرس بيضاء :

- ما أحلى لقاك يا لالة أندلس. أتسمعين يا بنيتي .. إنه سيدي العربي يناجيني .. إني على موعد معه اليوم.. أعرف أنه ينتظرني منذ وقت طويل.. أعرف أنه على أحر من الجمر.. مثلي.

سأسرع نحوه، لاوقت لدي .. !

لن أشرب قهوتي، لن أضع السكرة في الفنجان ولن أترك سيدي العربي ينتظر. نشرت مناشف الحمام في الشرفة، وضعت القبقاب في مكانه الذي اعتاده منذ سنين، رتبت البيت قليلا، عطرته، أشعلت عود بخور هندي ثم اضطجعت على الأريكة.

مد لي يده فصعدت نحوه.. حبيبي. قلت له :

- توحشتك يا سي العربي ضو عينيا ..

نظر إلي، وتغلغل نور عينيه في كياني. أشار لي بطرف رمشه كما كان يفعل في أيام عرسنا، رأيت النار المتوهجة تناديني فتبعته. لم أندم على شيء.. كنت أفكر فقط في أندلس حفيدتي. سأجد الوقت كي أقص عليه كل ما رأيت وعشت في غيابه، سأخبره أن أندلس شديدة الشبه به، وتكاد تكونه لولا أنوثتها المتجبرة ولولا رجولته الصاهلة. هي أيضا مثله في عينيها نجوم تتلألأ. سي العربي حبيبي وراحة بالي، سيقص علي ما حدث له مع المستعمرين الذين اغتالوه. سيكون الوقت كله لنا، والزمن كله ملكنا .. سيقص علي كل ما رآه وما سمعه في هذا العالم الغامض الذي يأخذني إليه. سيحكي لي كيف كان يتجلى في الماء كي أراه وفي حبيبات المطر. وسأحكي له انتظاري ومناماتي الغريبة عنه.

داخل إطار مفضض، معلق في مكانه منذ زمن بعيد، كانت لالة أندلس تجلس في الصورة بالأبيض والأسود، مبتسمة بجانب عريسها السي العربي، لماعة العينين، ترفل في ثوبها الأبيض بينما يستقيم هو واقفا مثل مسلة من الذهب في بذلته السوداء .. كانا يجلسان في أبهة وجلال داخل إطار مفضض مسند إلى الحائط في غرفة الجلوس عند الزاوية قرب المدفأة، لالة أندلس تحب المصابيح الخافتة والضوء الهادئ .. ستائر الغرفة مسدلة.

لا أحد .. غير فنجان قهوة واحد، وقطعة سكر واحدة، وملعقة صغيرة واحدة.

كبرت أندلس حفيدتها، وكبر الأخرون الذين تبنتهم ورحمتهم من اليتم والضياع واعتبرتهم أبناء لها وسهرت على تربيتهم وتزويجهم فكونوا أسرا وأنجبوا أطفالا جميلين وراحت الحياة تشغلهم و تبعدهم قليلا قليلا.. طاروا مثل العصافير حين تشتد أجنحتها ويمتد ريشها بما يطاوعها الهواء. جميعهم كبروا، وهم يتراكضون الآن في مدن الأرض التي أصبحت ضيقة.. أما الأهل و الأصدقاء فكل غارق في مشاكل الدنيا..العصر ليس كالعصر.. كانت الحياة مختلفة ... كل شيء تغير.. !!

في الصورة التي اصفرت قليلا بعوامل الزمن كورقة خريف، ململت لالة أندلس أصابعها قليلا لتخفى ابتسامة ساخرة :

ـ هي الدنيا هكذا !

من الصورة المعلقة، أطلت على مكانها الذي تعودها منذ عمر كامل، وعلى أشيائها، ورائحة القدامة.. هناك آلة خياطة عتيقة، لم تقو على التخلص منها، وهناك معطف قديم لزوجها الحبيب تخبؤه منذ عهد، تشمه كلما جنت ذكراه، وهناك ما تبقى من بندقية عتيقة كان يلقبها ب «طاردة نابوليون»، كم تباهت به وكم تباهت بها أمام الناس وأمام النسيان.. وهناك أشياء صغيرة لأبنائها وأحفادها، تخبؤها بمنتهى الحنان، وتخرجها من أمكنتها كلما جاؤوا أثناء أصيافهم من الأبعاد. وهناك العود الذي طالما عانق صوتها وأثلج صدرها وآنس وحدتها، وهناك لوحة ل»يحي الغريب» ذيلت بتوقيع يشبه شكل عينيها، وهناك الوقت..

الوقت الذي لم تعد تعرف ما تفعله به.. فهمت أنه لم يعد لها منه الكثير.

أخرجت لالة أندلس رأسها من الصورة، تحرك الإطار المفضض قليلا وكاد أن يسقط.

ـ لمن هاته الجثة ؟ ! قالت لالة أندلس وهي تكلم نفسها.

كان الفنجان مقلوبا، باردا، يابسا، وحزينا، وقطعة السكر مازالت مربعة.

ـ لمن هاته الجثة المرمية على طرف الأريكة أهي لي؟ أهي أنا ؟

لملمت لالة أندلس ثوبها الأبيض ونزلت من الصورة، حرصت على ألا يسقط الإطار المفضض، ظل ثابتا على الحائط في مكانه، وضعت قدميها على الأرض الباردة واقتربت أكثر من الجثة :

ـ آه.. إنها أنا.. أنا لالة أندلس .. الله أكبر ! !

يوم الجمعة الماضي لم أكن قد مت بعد، كنت في الحمام. وأدوات الحمام هاهي ذي كاملة تفوح بالعطور وروائح الصابون والعنبر، وذاك قرقابي، وتلك مناشفي المزينة بالزهور الصغيرة الوردية معلقة في أماكنها كالعادة مقابل نافذة الشمس، وتلك أصص الحنة الممزوجة بالقرنفل والورد المشمس وماء الزهر.

بأطراف الأصابع لمست لالة أندلس الجسد الهامد، جسدها.. انحنت عليه تتفحصه كان متحللا، متغضنا،

مسجى، هشا، متعفنا، مشوها، جامدا، لزجا، متيبسا، متضائلا، متسربة رائحته في زوايا البيت كله، كان الصمت قاتلا.

لا أحد .. غير رائحة الموت. كان الجسد غافلا عن غفلة الأشياء. ما الذي يفعله الدود بهاتيك العينين اللتين داعبتا الدنيا قرابة تسعين سنة.. ما هذه اللزوجة التي تهجم بالرطوبة على كل شيء، وتندلق فوق الأشياء.

ـ آه.. هي الدنيا هكذا إذن !؟ تنهدت لالة أندلس.

بهدوء ، كانت لالة أندلس تتحرك في ثوبها الأبيض في أرجاء البيت.. تنظر إلى أشيائها عن قرب، تتفحصها بمنتهى الحنان، تتأملها، وكان الزمن يراقص الأشياء يحلجها مثل ندف الصوف. وكأن شيئا لم يكن. سمعت فجأة أصواتا خلف الباب.. تعرفت على صوتها :

– إنه صوت أندلس حفيدتي، صوتها الرخيم الذي تشبه بحته بحة في صوتي. كيف عرفت أنني مت كيف؟ أرفق بها أيها الحزن علي .. أرفق بقلبها الرقيق!!

أصوات قلقة ومفزوعة وباكية. رجعت لالة أندلس بهدوء إلى الصورة، رتبت جلستها داخل الإطار المفضض المعلق منذ زمن زواجها في غرفة الجلوس، مثلما كانت منذ واحد وسبعين سنة، تربعت داخل الإطار المفضض مثل العادة. أخذت يده في يدها.

كانت تتفرج عليهم وهم يبكونها بمرارة، ويتأسفون أنهم لم يأتوا في الوقت المناسب.

- أي وقت مناسب؟ ! أخفت لالة أندلس ضحكتها.

باكية، اقتربت أندلس من صورة جدتها لالة أندلس وهي ترفل في ثوبها الأبيض داخل الإطار المفضض المعلق في غرفة الجلوس، عند الزاوية قرب المدفأة. نظرت إلى جدتها مليا بعينين نديتين وقلب مفجوع، اقتربت من الإطار أكثر ثم قبلتها ..

لم تكن الصورة باردة.

15

هذا الصباح تنبهت إلى أن الشمعدان كان حزينا تحت الشمع الذائب المتهالك على أطرافه.. ذابت شمعتا البارحة ولكنه مازال واقفا مستعدا لرفع قامات شموع أخرى.

تقول جدتي لالة أندلس إن الشمعدانات أساتذة لنا صامتون، فلاسفة يلقون علينا كل يوم درسا في التحدي، الشمعدانات لاتشيخ أبدا لأنها تتحدى وتتناسى نواح شموع البارحة.. علينا أن نتعلم منها كيف نحذر من تدهور قدرتنا على الوقوف أمام الصعاب وأن نتدرب على التحكم في الذاكرة وأن ننسى. تعلمنا الشمعدانات أننا نشيخ ونهرم حين نفقد قدرتنا على التحدي.

كانت كفي تداعب الشمعدان حين فاجأ صباحي رجل دق الباب، حمل إلي رسالة غريبة من الزعيم صاحب الغلالة. لم أكن أنتظرها و لم أكن أتخيلها.

صحيح أنني أدرك سلطان جاذبيتي على الرجال الذين ألقاهم وأتحدث إليهم، و على الذين يلمحونني لبعد أمتار، أو حين تتقاطع النظرات على حين غرة. أفهم ذلك . تقول جدتي لالة أندلس إن الجاذبية التي تتمتع بها بعض النساء القلائل من دون غيرهن، منة من عند الله يؤتيها لمن يصطفي

منهن من المصطفيات. ربما أنا مصطفاة منهن، ولكن لم أكن أتخيل أن الأمر يصل إلى حد الخط الأحمر. الزعيم ؟؟

الزعيم يريدني و به عشق معتق يكنزه منذ زمن ؟؟ لا أصدق !!

كنت أشك في صدق هؤلاء الذين يوهموننا أنهم مهمون، ولا وقت لديهم في حياتهم لغير أمور الرعية، وأنهم يحملون على أكتافهم هموم الملايين منا، ويخططون للحروب الباردة والحامية، منشغلون جدا ولا وقت لديهم لتنتصر العواطف عليهم .

كيف لي أن أصدق الآن. قلت : مجرد نزوة !!

كانت رسالته تبدو موجوعة، محترقة، ملتهبة، كتبها بخط يده بقلم حبر أسود ذيلت بتوقيعه باسمه ولقبه مجردين من دون أختام رسمية.

رسالة أنيقة في ورق مقوى أصفر بخطوط باطنية تخترق الورقة في انسجام، وضعت في مغلف كبيرفاخر مذهبة حواشيه ومصقول بشكل باذخ.

لهذا النهار الممتد طعم آخر !!

&&&&&&&&&

– هذه الليلة لي، لي وحدي. في أعماقي مكان لي وحدي، فيه منابعي تتجدد دوما ولا تعرف الأسن ولا التعفن. سأهدئ من روع نفسي كي تصفو، كي أراها جلية تعكس

حقيقتي. الماء العكر أيضا لا يعكس الأشجار والسماء إلا إذا هدأ وصفا.

أنا أندلس، حفيدة لالة أندلس.. وحفيدة سيدي امحند بن بوزيان .

هل أنا الموزعة بين جغرافيتين أم أنا الجامعة بينهما ؟

ألا حدود لهما في، أم لا حدود لي فيهما ؟

أنا الممزقة فيهما أم هما المجتمعتان المتوحدتان في ؟

كيف لي أن أهدأ كيف لي أن أصفو!!

أنا أندلس. أنا المتورطة في الإيمان بالمدينة الفاضلة. أنا المدججة بأفكار الفروسية التي لم يعد أحد يوليها اهتماما، أنا المؤمنة بتغيير لون العالم الرمادي بالفن وألوانه الناطقة بالحب والرفق والبراءة يلزمنا الكثير من البراءة كي نحقق الأشياء العظيمة.

هل خربت عقلي يوتوبيا كتب اليسار أم يوتوتوبيا كتب اليمين؟..

هل علي أن أنتحر أم أواصل شرودي.؟

للعنة على أخبار الخيانات، وأخبار الموت، والحروب، والظلم والدسائس التي تطارد البشر من كل الجهات.. من حسن حظ البشر أن أحلامهم تكبرفيهم وتزهر في غفلة من الرقيب رغم كل شيء وإن كانوا قادرين على الحلم فهم قادرون على الفعل.

الجو ضاغط و الثقل يتعاظم في الصدر منها، ينتفخ الثديان أكثر فأكثر، ويشتد الألم في الحلمتين وكأنهما رصاصتان يوسعان ممرهما الضيق كالنار.. تضيق حاملة الثديين يتقطع الرافع الأيسر ثم الأيمن، ويعم الشغب تحت القميص.

مسرعة، أدارت أندلس مفتاح الباب مرتين ، ألقت بالمفاتيح و المحفظة والحقيبة والحذاء والجرائد، والمعطف والقميص وحمالة الصدر مقطوعة الرافعين :

- هذه الليلة لي، لي وحدي.

تغطس أندلس في ماء الحمام الساخن. في المياه المعطرة.

- اعتني بجسدك جيدا يا أندلس، ما الأجساد سوى بيوت لنا إن لم نعتن بها فستتهدم فوق رؤوسنا!! يأتيها صوت لالة أندلس.

مسدت الجسد العطشان بكفيها المرتعشتين، داعبته، لمست أزراره السرية المكهربة بأصابعها فانتفض. تحرك دون إذن منها. حرن. تحرر من سلطتها. كان آخر غيرها، يحمحم مثل فرس وحشي فتي وقع لتوه في الشباك، لم تعد تسيطر عليه. أغمضت عينيها، شعرت بإخفاقها في كبح جماحه، كانت الرغوة الهلعة من حول جسدها تندفع في كل اتجاه، تعلو قامات الصنوبر، وتتدافع لترتفع عند خصور الجبال. كانت الأرض من غير أرض. تدكها آلاف الحوافر لأيائل مجنونة. وقع الحوافر زلزال مخبول. والسماء من غير سماء كانت، كل شيء يميد ويترنح نحو الهاوية. تنزلق الصخور

من على الصخور، ويسمع شهيق جارح لشلالات شاهقة، تهوي في مسقط رأسها عند تقاطع ساقيتين قرب منبت أشجار الدوح. يمر قطار في البعد تعلو صفارته، وتمطر سحابة في الأفق على سرب من حمر الوحش، راكضة لمسافات ممتدة نحو الشمال، تبتعد رويدا، تخلف ستارا من الغبار يرتمي متعبا على الأرض ..ثم .. ثم تهدأ الأصابع، ويهدأ الجسد، و يهدأ الماء، ويهدأ العر.

تهدأ العاصفة. وتستعيد أندلس رسن جسدها المجنون. تفتح الحنفيات لماء جديد.

- هذه الليلة لي، لي وحدي.

ترفع أندلس صوتها بالغناء :

شمس العشي

قد غربت واستغربت

عيني من الفرقا

على الشفق قد سترت حين غيبت

ترثي على الفورقا

حتى الطيور قد غردت وترنمت

زاد العشيق شوقا

جاوبتها بالإشتهار قفي نعتبر بل عليك مهلا

قال المليح زين الصغار فوز بالنظر

صب المدام و املا

تنشف أندلس جسدها المرتخي المطواع ، ولبست حريرا شفافة ألوانه .. وبأعلى صوتها :

.. يا شمس العشي أمهلي لا تغيبي بالله رفقا

هيجت ما بي حتى زدتني في القلب شوقا

ترفقي علي إني بالمليح قد زدت عشقا

في الواد المذهب

في ألواد المذهب

تضع أندلس خواتمها. تتزاحم النجوم فصوصا فوق صفائحها. كانت ببحة صوتها لاتزال تتفنن :

و وجه المليح مثل الثريا

و الساقي مؤدب

يسقي بالأواني البندقية

صففوا القطع وزيدوا نغنم هذه العشية

كلنا كأس في يده نغتنم ساعة هنية

تملأ كأسا مذهبة فوق صينية نحاس.. تخرج هديته من نسيانها هناك في الركن، أحضرها أمازيغ لها ذات سفر له إلى الشرق : نرجيلة بقاعدة زجاجية زرقاء مزركشة بالأصفر، وعلو يتداخل زجاجه الشفاف بالأصفر الزاهي والبرتقالي، تشعل الجمرات تملأ رأس النرجيلة الرخامي الأزرق بمعسل الورد، تلفه بعناية، برقيقة من لفائف الألمنيوم، ثقبتها ثقوبا

صغيرة متناسقة، وكأنها ترصعها بالنجوم.. تقربها من مجلسها العالي.

- هذه الليلة لي، لي وحدي.

والمليح قلبي يريده ينشرح بين يدي

والقاطع بيني وبينه

والعيدان تصنع تواشي

قربوا حِبي إلي و اعطفوا عطف الحواشي

أنا كلي ملك لكم... سادتي انتم لمن ؟

أنا عبد اشتريتموه رخيصا بلا ثمن.

- شيء ما عليه أن يصنع الاكتمال.. ابتسمت أندلس وغرزت في الركن عودين من بخور أحضرته أثناء أحد أسفارها إلى أمريكا اللاتينية، حركت شريطا نادرا لموسيقى صينية عتيقة، تذكرها بصعودها حتى أعلى قمة من سور الصين العظيم منذ سنتين. ذلك السور الذي يقف ضاحكا يلامس السماء ليغيظ الهاوية.

- هذه الليلة لي، لي وحدي.

أطفأت المصابيح وأشعلت شمعتين تتعاليان فوق الشمعدان، الشمعدان الحكيم الذي ورثته عن جدتها لالة أندلس.

- هذه الليلة لي، لي وحدي.

فتحت شباكها المطل على ميناء المدينة البحرية المتوسطية، كان يسبح في الأضواء بين السماء والأرض. تختلط

على صفحتها أنوار النجوم بمصابيح تتلألأ، تنبعث من المرافئ ، تتراقص و تنعكس معا فوق البحر الذي غيبته الظلمة. كان القمر في اكتماله، في ليله الرابع عشر، يضيء جزءا محظوظا من لوحة المشهد، بينما باخرة في البعد تصفر إيذانا بالرحيل أو الدخول إلى الميناء. تخيلت أندلس وتصورت على ظهرها ركابا كثيرين، تخيلت صدورا خافقة وعيونا دامعة إما لفراق أو لاقتراب لقاء. كم تحب أندلس شرفتها هذه المطلة على البحر. جدتها لالة أندلس كانت مثلها تعشق البحر وتعتبر رؤيته دواء للأوجاع كلها، لا لشيء إلا لأن به الملح الرباني، الملح المعالج، الملح الساكن في العرق، وفي الدمع، وفي البحر.

- هذه الليلة لي، لي وحدي.

عادت إلى مجلسها، تربعت على بساط محاط بالوسائد اللينة، الدافئة، الطرية، الملساء، لامعة اللون ذات الأحجام والأشكال المختلفة. حررت شعرها من ملاقطه، فانسدل، وفي غفلة منها تلقف البساط أطرافه، ثم غابت في سحابة من معسل الورد..

- هذه الليلة لي، لي وحدي.

كان الجدار المواجه بمرآته يبدو راجفا مرتبكا..

16

تحت شرفتي يمتد البحر، والسماء تمتد، و في البعد تتبارى في الاشتعال مصابيحهما. جدتي لالة أندلس تتابع حركاتي وسكناتي من جلستها في الصورة داخل إطارها المفضض، تحتل المكان وكأنها لم ترحل أبدا. وبين يدي النرجيلة، وعيدان البخور، والشمعدان الحكيم...

و هذه الليلة لي وحدي !

...

رن الهاتف ..كيف نسيت أن أغلقه :

- ألو.. نعم ؟؟

- مساؤك ورد يا أندلس.. !

-.....؟؟

- ألا تردين التحية على صاحب الغلالة ..؟ !!

أغلقت أندلس السماعة بسرعة . ربما من ارتباك أو من مفاجأة ؟. أعاد الصوت الكرة تلو الأخرى.

- لن أطلب منك أن تأتي إلي.. أنا الذي سآتي إليك يا أندلس، أنا صاحب الغلالة، شخصيا، أتنقل إلى حيث تكونين هذا المساء !

- ....لكن !

- لكن ماذا يا عزيزتي. هل ستردين طلبي ؟ ..طبعا لا .. ستقولين لي ما عاش من يرد طلبك يا صاحب الغلالة.. حتى و إن كنت صامتة أسمعها أردت أن آتي إليك بنفسي، سآتي إليك..

-...

- هل تدركين أنك تضيعين العمر الجميل ؟ لا عليك.. أنا من سيعبد لك طريقا على مقاس قدميك الصغيرتين.. متأكد أنا أن أقدارنا ستلتقي، وسأمنحك ما تحلمين به وستمنحينني قربك ليس إلا.

..وصلتك رسالتي جلية من قبل.. كيف لي أن أقنعك بما يحمله قلبي لك كيف؟ يكفي أن في البلد ما يقرب من أربعين مليون نسمة وأنت نسمتي ؟

..أريدك أنت فهل تفمهين؟ ثم إنني لا أرى ولا أتصور أن ترديني أو أن ترفضي طلبي.. (صمت لحظة ثم أضاف) : أحلم بك. وإن خيروني فسأبدل العرش بك. لا أريد العرش يا أندلس. أريد عرش أندلس. قربك مني وقربي منك. أريد عرشك.

- عذرا يا صاحب الغلالة أنا.. ....

-..بعد أقل من ساعة سأدق بابك لا تخافي سآتي وحدي.. سأدخل جنتك وحدي لا شريك لي.. رتبت كل شيء على أكمل وجه..

ثم أغلق السماعة.

فتحت أندلس الشرفة لهواء ينقذها من الاختناق. كان الصدر منها يتضخم و يعلو ويعلو. الحلمتان رصاصتان ناريتان تشقان طريقهما نحو المجهول. يتقطع الرافع الأيمن.. يتقطع الرافع الأيسر.. الحمى.. الليل بدأ ينزل مثل ستار مسرح عتيق.

عين أندلس لم تخطئا.. لاحظت شيئا غريبا غير اعتيادي في الشارع.

عند مدخل البيت شاحنتان ضخمتان تحيطان بالباب الخارجي، كل شاحنة متوقفة على جهة، واحدة منهما تبدو وكأنها في حالة عطل، بينما مجموعة من المصلحين يتحلقون حول المحرك المفتوح.

لم تلحظ أندلس من قبل أبدا وجود أكشاك لبيع الجرائد والسجائر قريبا من بيتها. من أين خرجت هكذا مثل الفطر؟ ثم من هم هؤلا ء الرجال الذين يفتعلون انتظارا على الرصيف؟

للتو فهمت أندلس أنها جميعها حيل من أجل ضمان أمن حلوله.

القلق حل في الأشياء. كانت رائحة الورد تملأ الأجواء، فتحت أندلس الباب فإذا بباقات ورود حمراء تغطي العتبة مؤكد أن الزعيم صاحب الغلالة بعث بها قبل أن يصل، هي عادة الملوك.. ما هي إلا لحظات فإذا به يهل.

- ألا ترحبين بي يا أندلس؟ كان يقف أمام الباب.

– بلى .. تفضل يا صاحب الغلالة، تفضل. قالت ذاك وعادت إلى جلستها في هدوء تحاول أن يكون طبيعيا.

أغلق الباب خلفه بهدوء. ظل واقفا ينظر إليها مليا. كأنه يتنفسها. كأن في نظرته مزيجا من الحنان والدهشة... والرغبة العارمة في الامتلاك.

– هذه أنت أخيرا ! أرأيت ؟ إني أكاد أضحي بسمعتي، وسمعة البلد كله من أجلك. زعيم البلد يتنقل شخصيا تحت جنح الظلام إلى بيت فنانة.

– يا صاحب الغلالة « لو كان قلبي معي ما اخترت غيركم «.

– أما أنا يا أندلس « لو كان قلبي معي لاخترت غيركم»، سأكون واضحا معك مثل البرق وسط العاصفة.. هل تتزوجيني يا أندلس؟

لم ترد .. بدا الصمت ثقيلا. بدا وكأنه يهش على الثواني بأنفاسه المتقطعة. يتلهى بالنظر إلى اللوحات المعلقة في الصالة.

– ما رأيك يا أندلس ..لم أسمع منك ردا ؟

– تريث قليلا يا صاحب الغلالة، للقلوب منطقها الخاص. لها سلطانها الذي لا يقهر.

– لا سلطان فوق سلطاني. أنا القاهر. وأنا الآمر الناهي. وكل ما في الأمر أني أرغبك وأريدك. سوق النساء واسع وبلا أبواب وأنا اخترتك من بين النساء وعليك ألا تسرفي في التمنع. بدا صوته متهدجا.

- هل أفهم قولك هذا بمثابة تهديد ؟

- هل يوجد واحد هذا البلد لا يعرف أن من عادتي الأمر ومن عادة الآخرين الطاعة يا أندلس.

- الطاعة حريتي وفني يا صاحب الغلالة .

- مئات من الفنانات يحلمن بهذا العرض، فاعقلي يا أندلس.

- على العقل أحيانا أن يذعن لأوامر القلب ومنطقه، فاعذر عقلي يا صاحب الغلالة.

- من ترفض أن تكون السيدة الأولى في هذا البلد سوى حمقاء.

- الحمقاء يا سيدي من لا تعرف كيف تكون سيدة نفسها ثم تدعي أنها السيدة الأولى في أمر آخر. وهل تسمح لي بسؤال ؟

- تفضلي.

- لماذا أنا بالذات ؟ كثيرات غيري أجمل وأبهى وأطوع يتمنين ذلك. أنا لا تستهويني السلطة يا سيدي.. لماذا أنا ؟

تغير صوته فجأة. صار أنينا عميقا، يفضح ضعفا لا يريده أن ينفضح :

- لأنني.. لأنني.. لأنك أندلس، ولا شبيهة لك بين النساء. وأقول ذلك عن علم العارف بهن. أنا خبير النساء،أعرفهن وأفقه في أمورهن و أسرارهن. لا تخفى علي الخفايا منهن، أرى الواحدة فتتجلى لي عارية من أي سر مثل كفي هذه..

مهما حاولت الواحدة منهن المراوغة، ليس ينفع معي دهاؤهن ولا مكرهن. مكر السياسة أفدح وأمسخ وأقبح علمني الكثير، ومن ذلك أن أتقي مكرهن ومكر غيرهن. أنا عارف متفقه في أمورهن.

أما أنت يا أندلس يعجبني تميزك وكبرياء الأنثى فيك.. (كان يبحث عن صدى أو رعشة ما في جفنيها) ..منذ زمن ليس بالقصير اكتشفت وجودك، كنت دائما محل نميمة نساء القصر، ولأن النساء لا يجتمعن على كراهية امرأة إلا لأنها أحسنهن وخطر عليهن، علمت عنك أشياء كثيرة. و رأيت أن مقام السيدة الأولى لا يليق إلا بك، ثم إن الأفئدة مراتب ومدارج ومقامات، فأنت الذروة.

- أشكرك هذا من لطفك ولكن ..

- طاوعيني يا أندلس.. طاوعيني .

- وإن لم يطاوعني قلبي ما أنت فاعل بي ؟

- أنت لا تدركين خطورة موقفك المتشنج هذا، قد تجبرينني على إيذائك.

- تستطيع يا صاحب الغلالة أن تأخذ الحصان إلى النهر، لكنك لن تستطيع أن تجبره على الشرب.

- إذن سأترك لك يومين لتشاوري نفسك سأنتظر ردك بفارغ الصبر، وسيكون بالقبول بالتأكيد. وسيغضبني غضبا شديدا إن كان عكس ذلك..

&&&&&&&&&&&&&&&&&

هل طال الحديث؟ هل استطال الصمت؟ كأن التعب أخذ منه مأخذه.

أهو تعب أم قلق. أم شيء ما آخرغامض يزعجه ويحيره؟ كان يذرع الصالة ذهابا وإيابا في خطوات مرتبكة.

رن هاتفه الخاص. كان يحمل ثلاثة هواتف محمولة. رد بسرعة. امتقع لونه..

- ما الذي حدث .؟

يبدو أنه أمر غاية في الخطورة .

كانت عيناه تدوران في محجريهما.. كان غائبا. فجأةغرق صاحب الغلالة في عاصفة مجنونة من الضحك الهستيري، فتح الباب ثم خرج هائما على وجهه وهو يصرخ :

- لا لا لا ..لابد أن في الأمر مزاحا ما.. هي مزحة ليس إلا.. أنا صاحب الغلالة وليس غيري أحد. أنا القاهر الجبار وليس سواي أحد. وما ذاك المخنث الوضيع إلا خادمي يأتيني بالطعام حتى سريري، كيف يجرأون ويطيحون بي وينصبون مكاني ذاك المخنث الأبله المعتوه؟؟

كان صوته يبتعد شيئا فشيئا إلى أن تلاشى نهائيا. قامت أندلس من جلستها،أغلقت الباب دونها، التقطت التليكوموند وفتحت التلفزيون فإذا العلم الوطني يملأ الشاشة بأكملها، تفاجأت ببث النشيد الوطني ثم الإعلان عن نشرة أخبارخاصة، مقتضبة وعاجلة مضمونها بلاغ من

القصر. مذيع الأخباريعلن عن حدث هام يتعلق بتغيير في السلطة، كان يبدو الارتباك على المذيع وهو يقدم الزعيم الجديد على المباشر، قصد قراءة بيان التصحيح من طرف مجلس السلطة الجديدة موجها للأمة.

بدا الزعيم الجديد مبتهجا، واثقا وهو يلقي بيان الانقلاب، وراءه تشاهد خلفية مرصوصة من صفوف الضباط الكبار بوجوه دون ملامح ترصع النجوم و النياشين منهم الأكتاف و الصدور. يقرأ أوراقه الموضوعة أمامه بعناية. كان نحيلا مكحل العينين، ملقط الحاجبين يرتدي طقما ناصع البياض بخطوط عرضية سوداء، يعقد منديلا حريريا فاقع الحمرة حول عنقه، تتلألأ من تحته سلسلة ذهبية . كانت حركاته المغناج من عينيه وشفتيه ويديه تخدعه، كلما حاول أن يداريها، فتسبق كل جملة يلقيها صوته الحاد : «أيها الشعب البطل حان وقت التصحيح ..»

ثم بصعوبة يقرأ وهو يعدل خصلة من شعره بدلال :

«ستدخل أيها الشعب العظيم البطل هذه المرة عصرا جديدا بفضلي.. أنا زعيمك الجديد صاحب الغلالة الجديد»

ضحكاته الخفيفة المكتومة تلحق بكل فقرة يتهجاها، ويمدد أواخر الكلمات ويبالغ في موسقتها ،ثم يتبعها بحركات من رأسه وكتفيه ويديه المرصوفة أصابعها بالخواتم الذهبية والفضية :

«أعلن أمامك الآن يا شعب المعجزات عن بداية مرحلة جديدة من تاريخ هذا البلد العظيم...»

ختم صاحب الغلالة الجديد خطابه التصحيحي التاريخي وهويحاول جاهدا أن يكتسي مظهر ملا محه الجدية والثبات، لكن ابتسامة مغناجا فلتت منه، نظر إلى خلفية الضباط وضباط الصف الذين كانوا وراءه مثل البنيان المرصوص، تصبب عرقه واعتدل واقفا رافعا رأسه وهو يثبت من عقدة منديله الأحمر الحريري حول عنقه.

اختفت صورة الزعيم من على الشاشة وانطلق النشيد الوطني من جديد ورفرف العلم.

عاد التليفزيون لبث شريط وثائقي عن الحيوانات المهددة بالانقراض.

و تركت أندلس الشاشة.

لم تنم أندلس كثيرا هذه الليلة أيضا. وقفت على الشرفة حين أصبح الصباح على الناس بعد الليلة الأولى للانقلاب. كانت الشوارع فارغة منهم .أين هم ؟ ماذا جرى لهم؟ رأتهم يخرجون إلى شرفاتهم ونوافذهم مثلها ليستفسروا عن مصدر هذه الضجة المفاجئة.

من شباكها كانت امرأة تقص على جارتها :

- يبدو أنها مظاهرة تأييد لصاحب الغلالة الجديد. متوجهة نحو القصر الغلالي !!

يسير في المظاهرة العارمة المسئولون السياسيون والإداريون من وزراء سابقين، وبرلمانيين، ومدراء شركات كبرى، وولاة ، ورؤساء بلديات، ومنتخبين محليين، ورؤساء أحزاب المعارضة، ورؤساء أحزاب الموالاة، وأمناء التنظيمات

الجماهيرية، والنقابات الحرة وغير الحرة، وشوهدت الياقوت الحاجبة الأولى لصاحب الغلالة المخلوع وكأنما فقدت رشدها، تهرول شبه عارية، وهي تنفخ بملء أوداجها في صفارة و تمشي على رأس المظاهرة، وشوهد في المظاهرة التأييدية للزعيم الجديد بعض سفراء البلدان العربية والإسلامية. تركوا مكاتبهم الفخمة وكراسيهم وسكرتيراتهم وأتوا من كل حدب وصوب. البرلمانيون كانوا يرفعون الأيدي عاليا مغمضي العيون. أما المسؤولون الكبار، فكانوا يحملون لافتات عريضة منمقة بشعارات تأييد مطلق لصاحب الغلالة الجديد. لاحظت أندلس أنهم جميهم يربطون حول أعناقهم مناديل حمراء، ويلوحون بأيديهم وقد زينوا جميعا أصابعهم كلها بالخواتم : وكان الأمين العام للنقابة الكبيرة يتقدم المظاهرة ينتفخ عنقه من الصراخ :

- عاش الزعيم صاحب الغلالة، عاش العهد الجديد.

فترد جموع المسؤولين وأصدقاؤهم وأعوانهم :

- يحيا الزعيم صاحب الغلالة الجديد.

- بالروح بالدم نفديك يا زعيم..

- بالروح بالدم نفديك يا زعيم..

كان الناس من العامة الدهماء واقفين على الأرصفة أو يطلون من نوافذ شققهم يتابعون المظاهرة المؤيدة للزعيم الجديد، تفرجوا طويلا حتى ملوا، و حين ملوا كثيرا، دخلوا بيوتهم وأغلقوا الأبواب و النوافذ دونهم. أندلس أيضا ملت

صراخهم وشعاراتهم فدخلت بيتها، أدارت المفتاح مرتين وأغلقت الباب دونها.

حاشية

قالت جرائد الزعيم الجديد أن غلالته، مدعما برأي ضباطه، يكون قد أمر بإخلاء القصر من سكانه جميعا، فبدل حجابه وحراسه وطباخيه وخدامه وكناسيه ومساحيه ومداحيه وطباليه وزغراتاته وشياتيه وبوابيه، وغير أثاث القصر كله، ولم يعف سوى عن لوحة أندلس عند سريره، بالضبط عند أعلى مسند الرأس.

الجزائر، شنغهاي، بيجين 2008